١٩. لماذا حمل الرسول السيف؟ ولم يكتف بالإقناع؟

فى هذا السؤال إيماءة مرفوضة إلى أن الرسول حارب ليحمل الخصوم على قبول الدعوة! وهذه تهمة لا أصل لها من عقل أو نقل! ماذا يدعيه المدعون بعد أمر الله لرسوله :﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(١) وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾(٢) .

إن الإسلام بنى خطته فى الحياة على استحالة زوال الأديان كلها ، واكتفى بأن يبقى مذكرًا بالحق ، منكرًا للهوى ، وترى ذلك فى قوله سبحانه :﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

حسبنا نحن المسلمين أن نقرر الحق ، وأن نحيا على هداه ، وأن نمهد طريقه لمن أحب سلوكه ، ولنا بلا ريب أن نرد المهاجمين ، وأن نحمى المستضعفين ، وأن نسكت المفترين إذا تمادوا فى أذاهم!

ولننظر فى الكتاب الذى أرسله النبى ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، ولنتأمل ما جاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٤)»!

بم ختم هذا الكتاب؟ إن رفضتم الإسلام فاعلموا أننا مسلمون باقون على إسلامنا ، لا تهديد ولا سباب! وإنما جاء التأثيم فى موقف هرقل ـ إذا بقى على دينه ـ من «الأريسيين» . .

(١) الكهف : ٢٩ .
(٢) الإنسان : ٢٩ .
(٣) البقرة : ١٤٥ .
(٤) آل عمران : ٦٤ .

ونحن نرى مع بعض المحققين أن الأريسيين هم أتباع آريوس البطريق الذى قاد حركة الموحدين فى التاريخ الكنسى ، ورفض بقوة جعل عيسى إلهًا أو ابنا لله . .

وهذا القس الموحد لقى مع أتباعه اضطهادًا شديدًا ، وتضافرت قوى الدولة الرومانية على مطاردته ومصادرة دعوته ، وورثت الحكومات الأخرى هذا الترويع حتى انقرضت كنيسته أو كادت . .!

ونستبعد أن يكون المراد بكلمة الأريسيين الفلاحين ، ومأساة الموحدين فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية ثم فى أرجاء أوربا معروفة ، ومن حق نبى الإسلام أن يندد بها ، ويذكر هرقل بموقفه منها . .

إننى ـ بعد إذ هديت إلى ذلك الفهم ـ عرفت أن الأستاذين معروف الدواليبى وأبا الحسن الندوى سبقانى إليه ، وذلك ما يقويه ويؤكده . . .

وربما كان الرومانيون يحسبون الإسلام امتدادًا لبدعة آريوس ـ كما يصفونها ـ وأيًا ما كان الأمر فقد حاولوا البطش بالإسلام ودعاته ، وشرعوا يقتلون من دخل فيه!

ولولا السيف الإسلامى الصلب ، ولولا الرجال أولو البأس الذين حملوه ، ولولا نبى الملحمة الذى انتصب دون دينه وعرينه ، لذهب الإسلام فى خبر كان ، وربما ضن عليه الاستعماريون بدموع التماسيح بعد ما يزول!!

إن المؤرخين الأوربيين غضاب لأن الإسلام قاتل الرومان! فهل سأل أحدهم نفسه : ما الذى جاء بالرومان إلى الشام وآسيا الصغرى ، وما الذى جاء بهم إلى مصر والشمال الإفريقى؟

أكان الإقناع طريقًا إلى إخراج أولئك المستعمرين من أرض احتلوها أكثر من خمسة قرون؟ هل أفلح الإقناع فى إنهاء استعمار البيض لجنوب إفريقية؟

إن الحرب وحدها بكل مغارمها ومتاعبها هى الطريق الفذ لمحو الاستعمار الطويل!

إن الإسلام أغنى الأديان بالأدلة وأحرصها على استثارة الأفكار ومناشدة الضمائر ، وكان يمكن أن يلام لو أنه آثر إعمال السيف على إعمال العقل ، أو قابل اللطف بالعنف أما أن يعرض حجته فيلقى الهزء والهوان ، ثم يحاول المتمرسون بالدهاء والجبروت أن يواروه الثرى ، فدون ذلك ركوب الأهوال .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم .

يقول ابن تيمية فى رسالته عن القتال : كانت سيرته ﷺ أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله! وهذه كتب الحديث والتفسير والفقه والمغازى تنطق بذلك ، بل هو متواتر فى سيرته ، فلم يبدأ أحدًا من الكفار بقتال . . . ولو أن الله أمره بقتل أعدائه لبدأهم بالحروب - ولكنه لم يفعل - .

ثم قال : أما النصارى فلم يقاتل أحدًا منهم حتى السنة السابعة من الهجرة - يعنى إلى عشرين سنة من بدء الرسالة - فلما أرسل بعد صلح الحديبية يدعو جميع الملوك إلى الإسلام ، وكتب إلى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشى ، وملوك العرب بالشرق والشام دخل فى الإسلام من النصارى من دخل ، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من أسلم من كبارهم بـ «معان» . . !!

قال ابن تيمية : فالنصارى هم الذين حاربوا الإسلام أولاً ، وقتلوا من أسلم منهم بغيًا وظلمًا!! ورسله عليه الصلاة والسلام كانوا يدعون إلى الإسلام - دعوة مجردة - فمن دخل فيه دخل طوعا لا كرها ، ما أكرهوا على الإسلام أحدًا ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل النبى جيش مؤتة الذى انسحب كما ذكرنا فى الفصل السابق بعد مصارع قواده الثلاثة ، ثم كانت غزوة تبوك التى قرر الرومان ألا يشتبكوا مع جيشها لحظة رأوها . .

إن القتال فرض على المسلمين فرضًا ، سواء كان مع الوثنيين أم مع الكتابيين ، واضطروا لخوضه دفاعًا عن أنفسهم وعقيدتهم وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾(١) .

أترى المطرود من وطنه لأنه مؤمن بربه يعد مهاجمًا إذا قاتل طارديه؟ إن الدهشة تملكتنى عندما رأيت كتابًا يصفون معركة بدر بأنها دليل على أن الحرب فى الإسلام هجومية! قريش كانت مظلومة وكان المسلمون هم الظلمة!

إنه المنطق نفسه الذى اتبع فى وصف المقاتلين الفلسطينيين الذين اغتصبت أرضهم ودورهم وألجئوا إلى العراء!! اعتبروا إرهابيين معتدين على اليهود الآمنين الطيبين!!

(١) الحج : ٣٩ ، ٤٠ .

وقد ربط القرآن الكريم بقاء المساجد والمعابد بقتال المؤمنين ورفضهم الاستكانة والاستسلام ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾(١)!!

أيحسب عاقل أن هذه النتائج النبيلة نشأت عن حروب عدوانية؟ ترى لو أن الرومان نجحوا فى قهر المسلمين واجتياح بلادهم أكان يبقى مسجد يرتفع فوقه صوت مؤذن؟ ذلك سر الغضب فى نظم الآية الكريمة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢) .

والحرب مع الفرس بدأ شررها منذ مزق كسرى كتاب الرسول الذى يدعوه فيه إلى الإسلام ، لقد غضب هذا الكسرى غضبًا شديدًا وكلف واليه على جنوب الجزيرة أن يأتيه بمحمد هذا؟

وكان الفرس ينظرون إلى العرب بازدراء ، ويحتلون أرض العراق ، ومن ثم أنف كسرى أن يحاول عربى هدايته!! أفكان الفرس يأذنون لمسلم أن يجوس خلال ديارهم يدعو أحدًا إلى الله؟

السيف وحده هو الذى يحل تلك المشكلة ، وماذا صنع السيف ، قلم أظافر الطغاة ، وتركهم بعد تجريدهم من السلاح يفكرون فى هدوء! ويتدبرون ما يعرض عليهم بعقل! لا إكراه على دين !!

لانعرف فى تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد ، ما غضب لنفسه قط ، ما غضب إلا لله وحده . . .

قالوا غزوت ورسل الله مابعثوا
بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم
جهل ، وتضليل أحلام ، وسفسطة
غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والجهل إن تلقه بالحلم ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالجهل ينحسم

(١) الحج : ٤٠ .
(٢) البقرة : ١١٤ .

٢٠.هل الجهاد مقصور على الدفاع أم يتجاوز ذلك لإكراه الناس بالقوة على الدخول فى الإسلام؟

هناك ثلاثة مواطن يجب فيها على المسلم أن يقاتل فى سبيل الله ، ويعد مسيئًا إذا تخلف عنها . .

الموطن الأول منع الفتنة ، فقد يتعرض المسلمون فى بعض البلاد لصنوف من الترويع والأذى تنزل بهم حتى يرتدّوا عن دينهم ، ولا يجوز ترك حملة العقيدة تحت وطأة هذا العذاب ، بل يجب كسر شوكة المعتدين وإسقاط سلطتهم حتى تتقرر حرية الضمير . ويؤمن من شاء دون خوف! قال تعالى :﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾(١) .

الموطن الثانى تأمين الدعوة ، فمن حق المسلمين أن يعرضوا ما عندهم على غيرهم عرضًا عاديًا لاتقترن به رغبة أو رهبة ، أى رشوة أو تخويف ، فإذا عطلت إذاعتهم أو صودرت كتبهم أو حبس دعاتهم جاز لهم أن يقاتلوا حتى يتقرر لهم هذا الحق ، أى جاز لهم أن يكسروا السياج الحديدى الذى تحتمى وراءه بعض الفلسفات والمذاهب الضالة .

الموطن الثالث عند الحفاظ على الدم والمال والعرض ، فلا يجوز لمسلم أن يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق المحليين أو الدوليين عليه أن يناضل لتبقى له ، ولا يحل له أن يقبل الدنية فى دينه أو دنياه ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾(٢) .

ويمكن أن ينضاف إلى هذا الموطن جهاد المجرمين الذين يحبون فى الميدان العالمى على القرصنة والتفرقة العنصرية وإيقاع المظالم بالضعفاء أيا كانوا وأين كانوا . .

(١) الأنفال : ٣٩ ، ٤٠ . (٢) الشورى : ٣٩ ، ٤٠ .

أما القتال لنعرة جنسية أو لأطماع شخصية ، أو لفرض الإسلام نفسه على الناس بالسلاح فمرفوض ، قال تعالى :﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(١) .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ ، والتعليم المجرد ، وترك الناس أحرارًا بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها!!

وقد كان الرسول ﷺ شديد الإلحاح على الناس ليفهموا ما جاء به ، ويهجروا عبادة الأصنام! وكان لشدة حنوه عليهم يطيل مطالبتهم باعتناق الحق وترك الباطل فقال الله له :﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(٢) .

والواقع أن الإكراه على الحق لا وجود له فى الرسالات السماوية كلها ، وتدبر ما جاء فى القرآن الكريم على لسان نوح : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾(٣) .

وقد حدد القرآن الكريم عمل النبى ﷺ فى نشر الإسلام ، فكشف أنه ليس حاكمًا عسكريًا يفرض على الناس ما عنده أو موفدا من السماء لإرغام مستمعيه على قبول ما يقول .﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾(٤) .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾(٥) .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾(٦) .

نعم بعد بيان شاف لحقائق الإيمان بالله واليوم الآخر يقال للمستمعين : ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾(٧) .

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾(٨) .

(١) البقرة : ٢٥٦ . (٢) يونس : ٩٩ . (٣) هود : ٢٨ .
(٤) الغاشية : ٢١ ، ٢٢ . (٥) ق : ٤٥ . (٦) الشورى : ٤٨ .
(٧) النبأ : ٣٩ . (٨) الأنعام : ١٠٤ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(١) .

هذا نموذج من الآيات التى نزلت فى مكة ، قبل أن يشتبك المسلمون مع أعدائهم فى حروب دامية ، كان أولئك المشركون هم موقدى نارها وحاملى عارها ، فماذا حدث فى المدينة بعدما قامت الدولة الإسلامية؟ يقول تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(٢) .

وفى موضع آخر : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(٣) .

ويؤمر صاحب الرسالة الخاتمة بهذه الآية : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(٤) .

وقد قلنا : إن أسلوب الإسلام على الناس تحدد فى نحو مائة وعشرين آية .

قال ابن تيمية : بعد فتح مكة ترك الرسول ﷺ أهلها قائلاً لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، لم يكرههم على إسلام ، ولا يقدر أحد أن ينقل أنه أكره أحدًا على دخول الإسلام ، لا متحصنا ولا مقدورا عليه ، ولا فائدة فى إسلام مثل هذا . .

نقول : وهذا بداهة وقع نزولا على قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(٥) !!

ومن أغرب الأقوال زعم بعض أن هذه الآية منسوخة !!

قال ابن تيمية : وجمهور السلف والخلف على أن الآية لا مخصوصة ولا منسوخة ، وأنا لا نكره أحدًا على الإسلام ، وإنما نقاتل من حاربنا . .

وآفة ثقافتنا الإسلامية أنها تدون كل شىء ، ويتجاور فيها التافه والثمين!

فهذا القول الشاذ بأن آية ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ منسوخة كتب إلى جوار القول الذى تواتر على السلف والخلف! وأصبح كلامًا يقال! ثم أصبح رأيًا يذكر!

(١) ق : ٣٧ . (٢) آل عمران : ٢٠ .
(٣) المائدة : ٩٢ . (٤) النور : ٥٤ .
(٥) البقرة : ٢٥٦ .

وينضم إليه أن الرسول حارب فى بدر مهاجما!! وبذلك وهكذا يصبح الإسلام دين عدوان . . . ثم يجىء دور المبشرين الذين يصيحون : ألم نقل لكم إن الإسلام انتشر بالسيف؟

إن هذا المنطق اللصيق بالإسلام يعجب علماء البدو الذين يحبون الغارات ، ويرحبون بويلاتها ويقولون :

وأحيانا نكر على أخينا … إذا ما لم نجد إلا أخانا

وترهم الحياة على ما وصف دريد بن الصمة :

يغار علينا واترين فيشتفى … بنا إن أصبنا، أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا … فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وما أسوأها حياة أن نغير طلاب ثأر ، أو يغار علينا لمثل ذلك . .!!

وهذا المنطق الدموى قد يعجب السلاطين والقادة المرضى بجنون العظمة ، إنهم قد يحملون اسم الإسلام والحقيقة أنهم يعبدون أنفسهم ، ويسفكون فى سبيلها دماء المؤمنين والكافرين جميعًا . .

لماذا فتح السلطان سليم مصر؟ وأجرى الدماء فيها أنهارًا؟ ولماذا لم يستعن بالمسلمين العرب على نشر الثقافة الإسلامية فى بلاده وفى غيرها؟ ولماذا ترك مسلمى الأندلس يبيدون دون عون وتموت دولتهم أمام الزحف الصليبى؟

إننا نكرر القول بأن الإسلام يأبى الإكراه فى الدين ، وإن كل ما ينشد حياة تتلاقى فيها التيارات الفكرية من كل جهة ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . .

قال ابن القيم فى كتابه هداية الحيارى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ هذا نفى فى معنى النهى! أى لا تكرهوا أحدا على الدين ، نزلت هذه الآية فى رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا أو تنصروا قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أسلم آباؤهم وأرادوا إكراه أولادهم على الدين فنهاهم الله سبحانه عن ذلك ، حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول فى الإسلام!

قال : «والصحيح أن الآية على عمومها فى حق كل كافر» .

إن الإكراه سلاح كل فقير فى براهينه فاشل فى إقناعه ، أعوزه المنطق فأسعفته العصا!

وإنه لمن الجهل المخزى أن يتحدث فى الإسلام من لا يعرف إعجازه العقلى ، وقدرته الذاتية على الانتشار والانتصار . . .

٢١. هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة؟ وما واجب المسلمين اليوم تجاهها؟

ما من أيام الجهاد فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام النحسات التى يذوق فيها المسلمون هزائم فى كل ميدان ، ويفقدون فيها الأرض والعرض والدنيا والآخرة!!

غير أن الجهاد المطلوب من طراز آخر غير ما ألف الناس ، إنه جهاد الكلمة ، وجهاد البحث والدرس ، وجهاد المال والقانون . . . وأخيرًا الجهاد بالنفس حتى لانفقد عقائدنا وكل مقوماتنا المادية والأدبية . .

كان العدوان على أرض الإسلام قديمًا يتم بين دق الطبول وصيحات المتعصبين الوحشية ، والصراخ المجنون بضرورة القضاء على دين محمد !

أما فى العصر الحديث فجريمة القتل تتم بمسدس به كاتم للصوت ، ووسط كلمات معسولة تخفى وراءها الحقد الدفين . .

إن الاستعمار العالمى لم ينس يوما كراهيته العميقة للإسلام ، ورغبته الهائلة فى وأده!

وقبل أن أشرح خطته الجديدة أشير إلى خطة قديمة مستغربة :

إن الغرض من كشف العالم الجديد لم يكن لأسباب اقتصادية مجردة!! بل كان لأسباب دينية أهمها القضاء على الإسلام!! وأترك الكلام للمؤرخ العالمى «هربرت فيشر» «لا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة فى الحصول على التوابل والذهب إذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية ، ففى الفاتيكان كانت المشروعات التبشيرية تتناول العالم بأسره ، وكانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام ، لا لأنها تفضى إلى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها أيضًا ستفضى إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق!! كان المعروف أن نجاشى الحبشة مسيحى ، وكان المعتقد أن بالهند دولة مسيحية يحكمها عاهل يلقب بالخان الأكبر وكان يداعب أوربا الكاثوليكية أمل كبير فى أن

تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين مساعدة فعالة فى حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين ، تلك هى خطة الهند كما رسمها نقولا الخامس ـ بابا روما ـ منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٥٤ م فى مرسوم بابوى إلى ملك البرتغال ، وفى هذا الجو المفعم بالآمال الكبار أقلع كولومبس ليكشف الطريق إلى الهند غربًا»[1] .

نقول وليبدأ تنفيذ المخطط الاستعمارى كما رسمه البابا نقولا الخامس . .

لكن القدر لم يقد كولومبس إلى الهند كما كان يتصور ، لقد قاده إلى أمريكا !

وتأخر تنفيذ الخطة العتيدة ، إلى أن استولت أوربا على الشرق الإسلامى وغير الإسلامى فى القرن الرابع عشر للهجرة ، وشرع الحقد القديم يتنفس ، أنه يتنفس هذه المرة بخبث هائل ، ويعمل بدهاء وأناة داخل حجرات ناعمة ، تاركا خصومه ينبحون فى العراء !

وإذا احتاج الأمر إلى البطش أخمد أنفاس الجماهير فى صمت كذلك أو بأقل الضجيج!!

وقد شرحنا فى موضع آخر من كتبنا الأسلوب الذى اتخذ للقضاء على الإسلام أمته ودولته ولا بأس من الإشارة إليه هنا :

١ ـ بعد توهين دولة الخلافة وانتقاص أطرافها وجهت إليها ضربة قاتلة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى طوت رايتها ، وقضت على الوجود الرسمى للإسلام فى الميدان الدولى .

والخلافة بين المسلمين تمثل ـ كما قلنا ـ أبوة روحية وثقافية مهيبة ، وترمز إلى ولاء المسلمين لدينهم ، واستمساكهم بوحدتهم الكبرى وأخوتهم العامة .

وفى الوقت الذى محا الاستعمار فيه هذه القيادة التقليدية دعم القيادات التقليدية لشتى الأديان الأخرى . .!

٢ ـ أكثر الاستعمار من صناعة دول لها صبغة تريحه ، وليس لها كيان طبيعى ، ولما كان الدين الأول فى إفريقية هو الإسلام فقد أعاد رسم القارة المنكوبة جغرافيًا وسياسيًا فأنشأ أكثر من خمسين دولة راعى فى تكوين كل واحدة ضم كثرة

(١) من كتاب «أصول التاريخ الأوربى الحديث» ترجمة أساتذة التاريخ بجامعة عين شمس وقد لفتنى إلى هذه الفقرات الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية .

إسلامية إلى قلة خلقها التبشير ، وجعل الحكم فى هذه القلة! وأسبغ عليها رعايته وتأييده ، وترك الجمهور المسلم لا حول له ولا طول يفترسه الجهل والفقر والمرض . .!

٣ ـ عمل على تنمية القوميات الصغيرة والكبيرة ، واجتهد أن تحيا وفق مذاهب علمانية أو شيوعية وأوعز إلى ساستها ألا يجعلوا الإسلام دين الدولة ، وأن يحذفوا هذا النص من الدستور .

٤ ـ فى الأقطار التى يعز فيها ذلك ، يكون تمويت النزعة الإسلامية بإقصائها عن ميادين التعليم والتشريع ، وخلق إعلام مائع وأدب ماجن وقضايا تشغل الفراغ وتبدد الطاقات وتدوخ الجماهير .

٥ ـ فسح الطريق أمام الحركات الدينية الخرفة ، وتركها تنشط لجمع الأجيال التائهة على أفكار بالية وجدل عقيم والمتدينون البله عون عظيم ـ من حيث لايشعرون ـ للاستعمار العالمى ، وطريق مختصر للإزراء على الدين وأهله .

٦ ـ إلغاء التعليم الأصلى إن أمكن ، وتنصيب رؤساء تافهين على معاهده التقليدية يدورون حول أنفسهم ولا يغنون عن الإسلام شيئًا ، ويلحق بذلك إلحاق هزائم منكرة باللغة العربية فى كل ميدان .

٧ ـ إبقاء التخلف الحضارى والصناعى والثقافى وجعل المسلمين أمما مستهلكة لا منتجة ، بحيث إذا حدثت صحوة إسلامية ـ رغم كل حيطة ـ لم تجد وراءها ، ما يمدها بالقوة أو يهيئ لها التقدم والنجاح .

من أجل ذلك قلنا : إن الجهاد الإسلامى حق ، لكن الوسائل الصحيحة ليست فى العنف والنزق والحماس الطفولى ، بل فى خطوات مدروسة وغايات واضحة تلبى حاجات أمة كسيرة ودين مهزوم فى أغلب الجبهات!!

إن الجهاد أضحى فرض عين على كل مسلم ومسلمة فى وجه غارات دائبة لحوح تريد اقتلاع الإسلام عن جذوره ، وترفض كل الرفض أن يعيش أتباعه وفق تعاليمه .

وقد كنت أحسب أن الارتقاء الحضارى الحديث قد محا أحقاد الماضى ، ويسر للناس جميعًا أن يتعارفوا لا أن يتناكروا ، فلما وقعت مذابح لبنان الأخيرة رأيت كأن العداوة ولدت اليوم أو أمس فقط! ورأيت جثث الأطفال المشوهة المبعثرة هنا وهناك تشهد بأن القوم يقتلون فى هؤلاء الأطفال امتداد الإسلام للغد القريب أو البعيد!! إنها هى مذبحة بيت المقدس أواخر القرن الرابع الهجرى!

ومن المفيد أن يعرف من يجهل أن مذابح صابرا وشاتيلا كشفتها المصادفات البحتة ، وأن مذابح سبقتها بين الفلسطينيين واللبنانين تمت فى صمت كئيب ، وخرس من شاهدها من الصحفيين الأجانب لأنهم وجدوا أنفسهم فرادى مروعين .

وقد أحصت منظمة التحرير عدد القتلى باثنين وسبعين ألفا منذ الهجوم الذى أغضت عنه المنظمات الدولية واكتفت فى استنكاره ببيان شاحب خافت . . .

إن من حقنا أن ندفع عن ديننا وعن أرضنا ، وإنها لسفالة أن يطلب منا طالب أن نرتد عن إيماننا وأن نترك لغيرنا بلادنا . . .

لماذا يباح لليهودى أن ينتمى إلى توراته ، وأن يهتدى بنصوصها على تحديد الأرض التى يريدها من كياننا ولا يباح للمسلم أن ينتمى إلى قرآنه وهو يرد هذا الاعتداء؟

لماذا يكون الإيمان ـ من خلال تعاليم القرآن ـ رجعية ممقوتة ، ويكون الإلحاد من خلال تعاليم الماركسية تقدمًا محترمًا ؟

لماذا يكون سجن يهودى فى روسيا جريمة يضطرب لها الضمير العالمى ويكون قتل الألوف المؤلفة منا شيئًا عاديًا ؟

إن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يظفر الإسلام بحق الحياة لنفسه وأتباعه دون ضغائن وعوائق ، ولسنا نوجب الجهاد لاضطهاد أقلية أو قسر الغير على عقيدة يأباها . .!

بيد أن حق الحياة للإسلام وأمته مطلب منكور بغيض لدى الكثيرين ، والاستعمار العالمى بشعبه كلها يمتد فى فراغ ، وسط أمم استهلكها اتباع الشهوات ، وحب الدنيا وكراهية الموت!! وتوجد حرب دامية الآن بين مسلمى أفغانستان والاتحاد السوفييتى ، وأعرف من المجاهدين رجالا يقاومون ببسالة ما يراد بهم ، لكن ماذا يفعلون أمام أنواع من المبيدات الكيماوية ، والآلات الجهنمية فى البر و الجو؟

إننا ندفع ضريبة تخلفنا العام! والجهاد المثمر ينبغى أن يتجه إلى أسباب هذا التخلف العلمية والخلقية الموروثة والمجلوبة .

وبذلك ننجح فى صد الطغاة ودحر العدوان . . .

٢٢. ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطا؟

قالوا من قديم : إن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وسواء اطّرد هذا القول أم لم يطّرد فإن الحقيقة تضيع بين الإفراط والتفريط ، والناس يعانون كثيرًا من الغلو الشديد والإهمال البارد .

وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القوى للمال ، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الأخرى ، وأن المسيحيين يرون التقوى فى الرهبانية والزهد واحتقار المال ، حتى قيل فى كتبهم : لأن يلج الجمل فى سم الخياط أقرب من أن يدخل الغنى ملكوت السموات!! .

وجاء الإسلام فرفض المسلكين ، وعدَّ المال وسيلة لما بعده وقال النبى ﷺ : **«إن هذا المال خضر حلو! ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حق كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة».**

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين فى تعاليم اليهود ، كأن التقوى عقوبة مرصدة لكل ذنب ، وكأن مرضاة الله لاتتم إلا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة ، فجاء عيسى عليه السلام يتحدث عن القلوب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة إلى عفو الله .

وقالوا : إنه ترك امرأة اقتيدت متهمة بالإثم ، وقال لليهود : من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليرجمها . .!

وجاء الإسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس! ويسَّر التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عنه! وأقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذى المجتمع بالإصرار عليه!!

أى إنه رفض الطاعة المستكبرة ، ورحم المعصية النادمة وطلب الإصلاح المتواضع الرقيق! يقول على بن أبى طالب : الفقيه كل الفقيه مَن لم يقنِّط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكره!

والحق أن عيسى عليه السلام لم يستهن بجريمة الزنى ، ولكنه كما روى الإمام مالك عنه يقول : لا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية . .

والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينًا والمنحرفة يسارًا .

سئل ابن مسعود رضى الله عنه : ما الصراط المستقيم؟ ، فقال : تركنا محمد فى أدناه ، وطرفه فى الجنة ، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد يعنى طرقا شتى - وثم رجال يدعون من مرَّ بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت بهم إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه ... ﴾[1] .

والغلو فى الدين قد ينتج عن خطأ فى الفكر أو عوج فى الطبع ، وغالبًا ما يزيغ عن الحق وينتهى بالانسلاخ عن الدين الصحيح لذلك يقول الله تعالى لنبيه : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[2] .

هناك من يبالغ فى التعبد فينحرف يمينا بالابتداع والحماس الكاذب ، وهناك من ينحرف يسارًا بالإهمال المنتهى بالجحود والتمرد . . يقول الشيخ محمد عبدالله دراز : **«كأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق فى الدين ، وباليسار إلى طرف التفريط والتقصير ، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل ، وعن الوسط الذى لا يميل إلى أحد الجانبين . ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات التى أشارت إليها أحاديث افتراق الأمة على بضع وستين شعبة أو البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التى أشارت إليها أحاديث فتح الدنيا وبسطها لهذه الأمة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم . . . إلخ ، لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين»** .

إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة فى شئون الدين والدنيا جميعًا ، ففى مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضنى ، ويؤثر الاعتدال المستمر قال رسول الله ﷺ :

(١) الأنعام : ١٥٣ . (٢) المائدة : ٧٧ .

«إن لكل شيء شرة. حماسا ونشاطا. ولكل شرة فترة. برودا وعجزا. فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه» .

وفى شئون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير ، ويحب الإنفاق المعقول وقد وصف الله عباد الرحمن فقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾(١) .

فى مجال العلم الدينى رأيت ناسا متبحرين فى المنقول والمعقول بهم فقه واسع ، ومحفوظات كثيرة ، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ ، تولى أحدهم القضاء ، وقدمت إليه امرأة متهمة بالزنى ، فما زال يستدرجها ويمكر بها حتى اعترفت له ، وحكم برجمها ؛ لأنها متزوجة!!

قلت : هذا منهج يهودى ، فإن رسول الله ﷺ كان يرشد المتهم ليفر من العقاب ويتراجع عن قراره . . ويتحايل عليه لينصرف آمنًا . . أما هذا القاضى فإنه احتال على المذنب ليقتله! ليس هذا أسلوب الإسلام ، والعلة أن جانبًا آخر من الثقافة الإسلامية لم يصلح قلب الرجل فبقى معتلا ، ولو ألف «علم القلوب» وذاق الجانب العاطفى من الإسلام لستر وغفر يستره الله ويغفر له!!

والمحزن أن هناك انفصالا فى علومنا الدينية بين الفقه والتصوف ، مما جعل المتصوفين يجنحون أحيانا إلى الجنون ، وجعل الفقهاء أحيانا يمثلون القانون العاتى الأصم . .

والوسطية فضيلة تبرز فى توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية ، ففى العلاقة بين الرجال والنساء مثلاً أبى أن تكون المرأة حبيسة البيت أو طريدته! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد!

البيت هو المحضن الذى تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده ، وليس البيت سجنا كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا ، وليس ملتقى عابرا للأبوين والأولاد كما تألف ذلك أوربا حيث الأسر شكل لا موضوع له .

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة ، فهى تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع ، وقد تشارك الجيش فى بعض الخدمات الطبية ، وقد تقاتل إنْ اقتضى الأمر الدفاع ، وينبغى أن تكون خبيرة بشئون أمتها الدينية والمدنية .

(١) الفرقان : ٦٧ .

وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه . . . فى الوقت الذى أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافا شائنا فى الذوبان خارج البيت ، وضد رسالتها الأولى .

لو التزمنا وسطية الإسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للأمة وأزكى للجنسين معًا .

وفى الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية ، بيد أنه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام ، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين . .

وبذلك ضمن إنتاجا غزيرًا لأن الحوافز قائمة ، وحفظ الجماعة من التفكك لأن التواصى بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سدها ، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة . . .

والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها ، فإن الله سائلهم عن الهدايات التى بلغتهم : هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس؟

وما من أمة إلا وهى موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾(١)؟

نعم ومحمد شهيد على المسلمين أنه أخذهم بتلك التعاليم الجليلة ، وسيدلى بهذه الشهادة أمام الله ، كما أن المسلمين سيُسألون : هل علموا كما تعلموا؟ إن الأمم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد!

وهم شهداء على الأمم لأنهم حملة الرسالة العامة ، ومبلغو «الوسطية» التى شرحناها آنفا وكما كان محمد أستاذًا لهم فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض!!

ذلك معنى قوله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢) .

والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرطت فى البلاغ والتعليم! بل فرطت فى العمل والتأسى بنبيها ، بل لقد أصبحت اليوم ذيلا لأحزاب الميمنة والميسرة فى الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم .

(١) النساء : ٤١ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

٢٣. كيف يبنى الإسلام الأمة المسلمة؟

ألف الناس فى عصرنا أن يكون ولاء الإنسان الأول لوطنه وقومه! حسنًا : ما الوطن؟ قطعة من الأرض تربطنا بها حقوق وذكريات! لكن من صاحب هذه الأرض ومالكها؟ ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١)؟ ومن خلق الأقوام الذين يحيون فوقها وشد أسرهم ودبر أمرهم؟ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ...﴾(٢).

ألا تكون العلائق أوثق وأسبق بهذا الإله الخالق المالك؟

إن الإسلام حين يبنى الأمة يجعل الإيمان العميق هو الدعامة الأولى فى هذا البناء ، ويجعل الولاء لله والعمل له الوظيفة الأولى للإنسان الراشد السوى .

إن عواطف من الربانية الغامرة هى التى تحرك المسلم وتحدد له غايته ومنهاجه ، وهى عواطف تتنامى كلما سمع الأذان للصلوات الخمس ، وكلما حجزه إيمانه عن رغبة مجنونة أو دفعه إلى عطاء سخى ، أو وقفه ليشد أزر ضعيف ، أو أغراه بالصياح فى وجه منكر . . !!

إن الربانية التى صنعها الدين أنفس معدنًا وأرجى ثوابًا من المواطنة التى صنعها الناس ، ومع ذلك فالمسلم أول المدافعين عن الوطن ؛ وأول المحامين عن العشيرة ، وأول القائمين بالحقوق المطلوبة من كل إنسان كريم ؛ لأنه يأبى الضيم ويرد العدوان .

وبديه أنه يكون ذلكم الإيمان هو الروح السارى فى كيان الأمة كلها ، والمنتظم للكبار والصغار والأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء . .

وبعد أن يرسى الإسلام أسس هذا اليقين يفرض مبدأ الأخوة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٣) .

والأخوة ليست لفظًا أجوف ، إنها رحم دينية موصولة تعطى ثمارًا أشهى وأزكى مما تعطى الديمقراطية والاشتراكية فى الميادين السياسى والاقتصادى ، إنها خلق فردى ونظام اجتماعى ، وقد اعتمدت الدولة الإسلامية منذ نشأتها الأولى على

(١) المؤمنون : ٨٤ . (٢) يونس : ٦٦ . (٣) الحجرات : ١٠ .

هذه الأخوة فى مواجهة ظروف الحرب والسلام والإقامة والهجرة واقتسام المغارم والمغانم وتحمل الأعباء والواجبات . .

ومن ينبوع الأخوة ينبجس رافدان من روافد العزة والاستقرار هما مبدأ التناصر ومبدأ التحاب . .

أساس التناصر أن المسلم لا يدع أخاه أبدًا يحرج أو يذل ، ويمضى لشأنه تاركًا إياه يواجه وحده ما يقع له . . كلا ، يجب أن يلزمه ويثبته ويدفع عنه ، يحامى معه أو دونه . .

والواقع أن أشجع الشجعان لايستغنى عن عنصر مادى يسعفه فى الشدائد ، إن المرء قد يغضب إذا أهين ، وقد يستعد للقتال إذا قطع عليه الطريق! ولكنه يغضب ويستعد ويهجم على المعتدى إذا كان معه سلاحه ، والمؤمن سلاح لأخيه ، وعضد له فى الشدائد ، والمؤمن بين إخوانه يتحرك بقواهم كلها ، لا بقوته وحده ، وهذا الشعور الجماعى من معالم الجماعة المسلمة . .

قال عليه الصلاة والسلام : **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . . .»** وفى رواية : **«المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه، إن أحدكم مرآة أخيه!!** وقال: **«من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة»** .

على أن لهذه النصرة الواجبة صورًا مختلفة تقتضى التبصر والروية ، فليس الأمر عصبية عمياء ، كلا ، المهم إحقاق الحق وإبطال الباطل فعن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا! قيل: أنصره إذا كان مظلومًا، فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره»** .

والاستعمار العالمى يجتهد فى قتل مبدأ التناصر ، وفك تضافر الأمة ، وقد أعانه على ذلك الاستبداد الداخلى ، أو قل : إن الاستعمار سخر الحكم الفردى لإشاعة الفتك والسفك ونشر العار والدمار حتى كادت بعض الشعوب الإسلامية تفقد ملكة الشجاعة وعاطفة التعاضد والتناصر ، فأصبح أحد لا يلوى على أحد !!

ولكى نحيا لابد من إحياء مبدأ التناصر بين المسلمين جميعًا . . .

أما المبدأ الثانى من آثار الأخوة الإسلامية فقوامه التحاب لوجه الله ، وجعل الانتماء إليه عاطفة شريفة تعلو كل الصداقة وترجع كل قرابة ولذلك جاء فى الحديث القدسى : **«يقول الله عز وجل يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»** .

والواقع أن الحب فى الله يهون مشاق الحياة كما يهون الحذاء مراحل الطريق ومتاعب العمل ، وعندما يستوحش المرء من الناس ، بل من نفسه ، تجيء هذه العاطفة المباركة فتؤنس البعيد ، وتمنحه قوة على مواصلة العمل لله والجهاد فى سبيله .

وتقديرًا لهذه الحقيقة يقول الله سبحانه فى الحديث القدسى : **«وجبت محبتى للمتحابين فىَّ، وللمتجالسين فىَّ وللمتزاورين فىَّ، وللمتباذلين فىَّ»** يعنى من ينفقون أموالهم بسخاء إجابة لهذه العاطفة حين تفرض النفقة! .

وليس حب المؤمن لإخوانه نافلة يتطوع بها إذا أراد ، كلا ، إنها أثر اليقين الناضج . ولا يسوغ أن يكون المؤمن ميت الإحساس يتحرك لما يعنيه ويبرد لما يعنى غيره ، إن هذا الانحصار الشخصى هدم للجماعة وإضاعة للأمة ، والمؤمن الحق يحب غيره كما يحب نفسه ، في هذا يقول النبى ﷺ : **«والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»** .

وتحية الإسلام مفتاح التعارف أو نقطة البدء فى انخلاع المرء عن عزلته واهتمامه بإخوته ، وفرحه بما يفرحهم وحزنه لما يحزنهم!

ومن اللطائف قول رسول الله ﷺ **«إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره بأنه يحبه»**، وقوله: **«إذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو؟، فإنه أوصل للمودة»**!

وفى كل مجتمع بشرى أغنياء وفقراء ، حتى المجتمع الشيوعى فيه من يصبرون كرها على طعام واحد ، ومن يطاف عليهم بالصحاف المنوعة ، إن العلاقة بين هؤلاء وأولئك جديرة بالتأمل . . .

أيكون ذلك التفاوت مبعث حقد؟

عند المؤمنين بالدنيا وحدها لا ريب أنه يخلف فى النفوس آثارًا سيئة! أما المشغولون بآخرتهم ـ إلى جانب دنياهم ـ فهم لا يأبهون لذلك كثيرًا مادام عند كل امرئ ما يكفيه ويغنيه بل لقد وجدنا التنافس اتجه إلى ناحية أخرى ، فقد شكا الفقراء إلى رسول الله إنهم متخلفون عن الأغنياء فى مجال الإحسان! قد تجمعهم الصلاة والصيام ، ويتساوون فى الأجور ، لكن الأغنياء يعتقون ويتصدقون ويجاهدون بمالهم ويمكنهم التفوق الاقتصادى من أعمال صالحة كثيرة . . .

أرأيتم فيم فكر فيه القوم؟ أنهم لم يشكوا عيلة فى الدنيا ولا غبنا نزل بهم ، إنهم يفكرون فى الآخرة ، وتلك خاصة يمتاز بها مجتمع ربانى . . .

جاء فى السنة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم! قال : **«وما ذلك؟»** قالوا : يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله ﷺ : **«ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ إلا من صنع مثل صنيعكم»!** قالوا : بلى يارسول الله! قال : **«تسبحون وتكبرون وتحمدون ثلاثا وثلاثين مرة دبرة كل صلاة»!** قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، يعنون أنه بقى لهم تفوقهم ـ فقال رسول الله ﷺ : **«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»!**

إن همة المؤمنين تنشد الرضوان الأعلى ومنازل الآخرة ، وهذه الصبغة الربانية صانت الأمة الإسلامية فى ميدانين مهمين :

الأول : فى تلقى العلوم الدينية وصيانتها وتعليمها للآخرين ابتغاء وجه الله .

والثانى : فى الجهاد المتفانى لرد أعداء الإسلام ، واستبقاء دولته قائمة مع إلحاح الغارات الصليبية والوثنية عليها . .

إن النجاح فى هذين الميدانين استبقى أصول الإسلام ومعالمه وغطَّى عيوبًا كثيرة نشأت عن مفاسد الحكم ، وشهوات الحكام .

وأمر آخر يظهر فى ثبات البناء الإسلامى على تراخى الأزمنة ، إن الإسلام عدَّ العمل للحياة عبادة ، وعدَّ المال قيام الحياة وسياجها وكان الصحابة يقسمون أيامهم ، فيجعلون بعضها للبقاء مع النبى ﷺ يتعلمون ويقتدون ، والبعض الآخر للضرب فى الأرض يكدحون ويكسبون ، فإذا غابوا عهدوا إلى إخوانهم الحاضرين أن يحفظوا لهم ما يجد من وحى وسنة ، ليعرفوا بعد عودتهم ما هنالك ، ثم يردون الصنيع لإخوانهم إذا غابوا . . .

ومن ثم لم يقع قط أن كان المسلمون فى الشئون المدنية أخف كفة ، أو أسوأ حظاً ، والدين لايتم تحصينه إلا بدنيا قائمة ، وسناد مدنى متين . . .!!

٢٤. كيف يبنى الإسلام المسلم القوى فى مواجهة متغيرات العصر...؟

لا أظن الإنسان المعاصر يختلف عن الإنسان القديم الذى خاطبه أنبياء الله من عشرات القرون! ولا أظن إنسان هذا العصر مكلفًا بوظيفة أخرى غير الوظيفة التى كلف بها الإنس والجن من فجر التاريخ ، والتى أوضحها القرآن فى هذه الكلمات الوجيزة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(١) .

إنه هو الإنسان السوى القوام ، الخصب المواهب ، المفضل على مخلوقات أخرى تملأ البر والبحر ، الذى حمل وحده أمانة التكليف ، وقدر على الترفع والإسفاف والتقوى والفجور . .!

نعم ، هناك أمور جديدة فى هذا العصر ، فقد تقدم العلم ، واكتشف كثيرًا من أسرار الكون وقواه ، وارتقت الصناعة ، واخترعت آلات وأجهزة رفهت المعايش ، ويسرت للإنسان فى لحظات ما كان يعجز عن تحصيله فى سنوات . . كما افتن الإنسان فى صناعة آلات الفتك والدمار الشامل حتى لأمست الحروب تؤذن بانتهاء العمران البشرى . . وازدهرت العلوم الإنسانية وطمحت أن تقود العالم أجمع فى شئونه الأدبية والاقتصادية والسياسية . . . إلخ .

ماذا يصنع الإنسان المسلم وهو يواجه هذا الجديد كله . .؟ إننى لخبرتى الحسنة بالإسلام لا أشعر بقلق ما على إيمانى أو منهجى فى الحياة ، لكنى أشعر بأن الإسلام هو الدين الأوحد لمواجهة هذا العصر! أليس عصر العلم؟ بلى ، وكذلك دينى دين العلم الذى أهاب بالناس أن يبحثوا كل شىء ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾(٢) .

إن العلم مؤمن لا ملحد ، وهو يدعو إلى الإيمان لا إلى المروق! وما كفر العلم ـ فى

(١) الذاريات : ٥٦ .　(٢) الأعراف : ١٨٥ .

الأعم الأغلب ـ إلا بما يجب الكفر به من كهانات وخرافات ومتناقضات! وأنا أؤيده فى ذلك كله . .!

إننى أرى بلادة الكفر ضربًا من الحيوانية! أو هى اقتراب منه! أليس يقول ربى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾(١) .

وقد تابعت استطلاع الآراء بين جماعات علمية فى أوربا وأمريكا فرأيت الكثرة الكبرى تؤمن بالله ، ووجدت قلة متوقفة حائرة ، ووجدت ندرة تافهة زائغة القلب لا عقيدة لها . . فالزعم بأن جمهور العلماء لا دين لهم كذب ، أو شائعة تنشر لغرض خسيس!!

إن روحى تعشق المعرفة كما يعشق الجسم وجبة شهية ، ومن محبة العلم يجىء هذا الدعاء ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾(٢) ، وعلى المسلم إذا أحب مرضاة ربه أن يزداد تضلعا فى العلم ، واستكشافا لآفاقه .

وما يسمى بالعلم المادى ـ أعنى العلم الباحث فى ملكوت الله ـ أرجح موضوعًا وأطيب ثمرة من الفلسفات الشرود التى شاعت قديمًا وحديثًا ، ولم تكسب الإنسانية منها إلا الحيرة والجدل ، والغرور .

أما التقدم الصناعى الذى نعم الإنسان وأراحه فهو خير كثير ! ونعمة جديرة بالشكر الجزيل ، ألم تر أن الله تبارك اسمه كى يرغب آدم فى الطاعة ، أسكنه الجنة وقال له : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى ﴾(٣) أى لاتتكلف الكدح فى وهج الشمس ، فتتصبب عرقا ويحول لونك وراء لقمة العيش .

من قال : إن الإنسان يحب الوصب والنصب وركوب المشقات؟ إذا كان هناك ما يغنى عنها!

والمرء الآن ينتقل من بلد إلى بلد ، ومن قارة إلى قارة ، وهو جالس فى كرسى وثير يتناول ما يشاء من طعام وشراب ، تشق الطائرة به الجو فإذا هو بعد ساعات بين أحبته!

(١) الأنفال : ٢٢ .　(٢) طه : ١١٤ .　(٣) طه : ١١٨ ، ١١٩ .

ماذا كان يفعل أجدادنا عندما يغيرون أقدامهم ، وتتغير ملامحهم ويتعرضون للحتوف فى هذه الأسفار المعنتة؟

الحق أن هذا المتاع الميسر لنا ما ينقصه إلا شكر الله على ما هدى وأسدى!

وعلى المسلم أن يجيد هذه الصناعات المحدثة ، وأن يألف استخدامها واستصلاحها ، وأن يتفوق على جن سليمان الذين قال الله فيهم : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[1]!

نعم إنّ المهارة فى تلك الصناعات المدنية مهاد لابد منه لإجادة الصناعات العسكرية التى تحتاج إليها حروب البر والبحر والجو .

إننى أكره الحروب ، ولا أتمنى لقاء العدو ، ولكن ماذا أصنع إذا اجتاح الطغاة دينى وبلدى ، وأرادوا إثبات باطلهم ومحو حقى؟ ماذا أصنع إذا كان هناك من يحرق الثمار حتى لا يرخص سعرها ولا يرى أن يطعمها الجياع؟

ماذا أصنع إذا وجد من ملأ من خير الله فمه ، فإذا حدثته عن الله رد يده فى فمى لأخرس عن الكلام . .؟

لا حل إلا القتال ، ولا يقدر على القتال من يعجز عن صنع أدواته ، إن المهارة هنا دين ، والصبر جهاد! وكما يقول شوقى :

الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء!

من ناحية أخرى يجب التنويه بالشأو البعيد الذى بلغته الحضارة فى التنظيمات السياسية والاقتصادية والإدارية التى تحرك الجماهير ، وتوجهها إلى أهداف مرسومة . . .

إن من وراء هذا النجاح تقدمًا عظيمًا فى دراسة العلوم الإنسانية كلها ، حتى كادت هذه العلوم تكون «الشريعة» التى تلتزمها أوربا فى أحوالها الخاصة والعامة . .

وهذه العلوم ليست إلا فروع الفلسفة القديمة بعد إدخال المنهج العلمى عليها ، أو بتعبير أصح على بعضها ؛ لأن هناك نظرات فى علوم التربية والاجتماع والاقتصاد بعيدة عن الدقة العلمية . .

---

(1) سبأ : ١٣ .

وأرى أن نستفيد نحن المسلمين من هذه الدراسات ومن تطبيقها فى ميادين الحياة . .

إن ضوابط الشورى هناك نجحت فى محق الحكم الفردى . وإعلاء سلطات الأمة ، لم لا نستفيد من ذلك؟

وحماية المال العام ـ من الساسة المهرة فى اختلاسه ، أو الموظفين المحبين للسحت ـ بلغت منتهى الدقة ، لماذا لا نقلد القوم فى تلك الوسائل الناجعة . .؟

لست أجهل أن لدينا من علماء الدين من يكره العلوم الإنسانية وما نشأ عنها . . لأنه يقصر نظرته على ما بها من أخطاء ، ولأنه يرى أن هذه العلوم تتحدث فى النفس الإنسانية والمجتمع البشرى ، وقد قال الدين كلمته فى هذه النواحى كلها . . .

ومعاذ الله أن نهمل كلمة الدين فى قضية نفسية أو اجتماعية! إننا نقتبس من جهود البشر ما يحقق الأهداف التى يتفق عليها العقل والنقل ، وإذا سبقنا غيرنا إلى عمل ما يحقق العدالة فنحن أولى به .!

هل امتنع نبينا عن حفر الخندق لأنه خطة فارسية ، أو حيلة لم يألفها العرب؟ كلا ، والحضارة الحديثة ـ برغم مقابحها الكثيرة ـ تجاوبت مع العقل والفطرة فى ساحات علمية ودستورية واسعة ، من حقى أن أترك شرها وأقبل خيرها .

وربما يدفعنى إلى هذا أن الدين أصيب بمتحدثين عنه يجهلون جوهره ، ويكترثون للمظهر الملصق به ، وليس غالبًا منه .

سمعت رجلا يقول بفخر إنه أقنع أحد الأمريكيين باعتناق الإسلام ، وإن الداخل فى ديننا بلغ من تقواه أنه اقتنع بلبس الجلباب الأبيض!!

قلت له فى أسى وسخرية : هل اقتنع بلبس العقال؟ قال : ما تعنى؟ قلت : ما دخل الملابس فى ديننا ، ولماذا لاتترك الرجل يرتدى زيه القديم ، ويعرف الناس من سمته وسيرته وشرف فكره وخلقه أنه مسلم؟

إن الإسلام لايؤخذ من فقهاء البدو ، ولا من عسكر الترك ولا من دراويش التصوف!

لماذا تنسى فرائض ديننا وفضائله الأولى ونعلق الناس بتقاليد جنس ما، أو بخصائص عصر ما؟

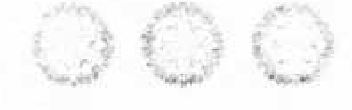
عرفت «إنجليزيًا» أسلم وتصوف، وانتمى إلى الطريقة النقشبندية! وأشهد أنه كان إنسانًا طيبًا! بيد أنى يئست من أنه سينفع الإسلام بشىء طائل!

إن عدد المسلمين المهاجرين إلى إنجلترا يبلغ المليونين، وهم ضعف اليهود الإنجليز، ولكن أثر اليهود فى ميدان الثقافة والسياسة والاقتصاد بعيد المدى، عميق الأثر، يكادون يوجهون إنجلترا كلها.. أما المسلمون الذين يحمل أكثرهم جنسية إنجليزية، فلا وزن لهم فى شىء!

إنهم - مثل غيرهم - لا يحملون الإسلام النازل من السماء، وإنما تستبد بأفكارهم وأحوالهم قضايا دخيلة وإضافات تافهة..

إن الإسلام يصفى القلب من الأهواء، والعقل من الأوهام. ويرص صفوف المؤمنين بعدئذ فى جهاد موصول لإعلاء كلمة الله.

أما مع فساد الفطرة واعوجاج الفكر، فلا مكان لإسلام...



٢٥. لماذا كان الحل الإسلامى لمشاكلنا هو الأفضل والأمثل والأنجع؟

الشعور عام بأن الأمة الإسلامية تعانى فى العصر الأخير من علل معقدة ومعضلات اجتماعية كثيرة!

كانت حكومة الخلافة العثمانية تسمَّى «الرجل المريض» ثم ذهب الرجل المريض، واقتسمت تركته حكومات أخرى! فهل شفى الحكم العليل وصحت الشعوب المريضة، وأصبح الشرق الإسلامى موارا بحركات الإصلاح وثبات النهوض..؟

لا أظن أن الحاضر ليس خيرًا من الماضى، فالمسلمون جميعًا والعرب خاصة يترنحون أمام ضربات «إسرائيل» التى أقامت سطوتها على أنقاضهم المادية والأدبية.

ولا يزعم عاقل أن هذه الحالة تدل على عافية وسلامة أوضاع..!

إن الرجل المريض عاد مرة أخرى فى أشخاص رجال يحكمون أممهم كرهًا! ويعالجون عللها بجهل! ويسكتون الناصحين بكبر! ويفلسفون الهزائم المخزية حتى يبقوا فى الحكم إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً..!!

نظرت يوما فى برنامج رجل يدعى الإصلاح، كان شيوعياً يستر نفسه بعناوين مزورة، فقلت: تجربة فاشلة! وسألنى سائل: لماذا؟ فقلت: هل يمكن أن يزرع الشاى فى الشرق الأوسط؟ لا، لا التربة تقبل البذر، ولا الجو يعين على النمو، إنه جهد ضائع! قال: إن الجيش معه، والصحافة معه، و... قلت: لو كان كل شىء معه فالتجربة فاشلة.

قد يملك الأجسام ولكنه لن يملك القلوب! قد تحفه طوائف من المرتزقة، وهواة الكسب الحرام، ولكنه عند الجد سيفقد كل شىء..!!

إن هذه الأمة الإسلامية لا تصلح إلا بدينها وحده ، بعد استكمال العناصر الناقصة منه ـ وهى خطيرة ـ وبعد استبعاد الخرافات الملصقة به ـ وهى كذلك ـ !

إن أمتنا بطبيعتها سوف تستعصى على كل حل غير إسلامى ، وسوف تبذل المحاولات الدامية لإكراهها على تجرع أدوية لاتريدها ، وسوف تتبدد الطاقة ـ طاقة الشعب والدولة معا ـ بين الأخذ والرد !

وفى غضون هذا التناقض الداخلى يكسب الاستعمار العالمى معاركه ، ويفرض نفسه . .!

وهنا حقيقتان تحتاجان إلى الشرح : الأولى أن الإسلام صدى الفطرة الإنسانية ، وخلاصة ما قال النبيون كلهم لكبح جماح البشر وهداية العالم إلى ربه الواحد .

إن الإسلام لم يجئ لهدم موسى أو عيسى ، بل جاء لإحياء ما قالوه وضاع فى غمار الماضى ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] فإذا كان الإسلام رسالة لإصلاح العالم بوحى الله ، فكيف يعجز عن إصلاح الأمة التى حملته وبلغته؟

والحقيقة الثانية أن العرب ما دخلوا التاريخ إلا بهذا الدين ، وما عرفت لهم حضارة ، وتمت لهم قيادة ، وتحققت لهم سيادة إلا تحت راية الإسلام ، فكيف تكلف أمة بنسيان شخصيتها وحضارتها وتاريخها؟ إن هذا تكليف لها بالانتحار! وتلك هى المهمة القذرة التى ينفذها بعض الساسة المرتدين . .

إن العرب عاشوا بلا دين أيام آبائهم عاد وثمود ومدين ، فبماذا جوزوا؟ رجفت بهم الأرض ورجمتهم السماء حتى بادوا وتطهرت منهم الدنيا . .

ثم اختار الله محمدًا وقومه لإقامة حكم صالح مصلح . . أساسه القرآن العربى ، ومنهج محمد الهادى الملهم ، وقال الله سبحانه للإنسان الذى ناط به إصلاح الأرض : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾[2] فكيف يكلف أحد أتباع محمد بترك ما لديهم

(١) فصلت : ٤٣ .
(٢) الرعد : ٣٧ .

من علم ، واتباع الأهواء الراشحة من شرق أو غرب تحمل الشر والشرر؟ . .

إن العرب لا يصلحون إلا بالإسلام وحده! هو الذى أذهب جاهليتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، والمرء قد يعرض له ذهول فيكبو ، ثم يفيق فيبصر الطريق كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1] وكذلك العرب قد يفقدون رشدهم حينا ويفسدهم الترف والبطر ، ثم تصحو ضمائرهم فيتوبون ، أو تظل قلوبهم قاسية حتى تنهال عليهم سياط الغزو الخارجى ، وتجوس الأعداء خلال ديارهم ، وعندئذ يكويهم الندم ويسارعون بالعودة إلى الله فيقبلهم ويرد لهم الكرة على أعدائهم . .

واليوم نريد أن ننفض تراب الهزيمة عنا وأن نستأنف مسيرتنا كما كنا . . . أعنى كما كان سلفنا الأوائل الكبار . .

لابد لذلك من عناصر معينة لايصنعها إلا الإسلام .

نريد العاملين الذين يرقبون الله فى الخلوات ، فلا يكسلون عن واجب ، ولا يخونون فى أمانة ، ولا تمتد أيديهم إلى رشوة ، ولا يبحثون عما لهم ويتجاهلون ما عليهم . .

نريد أساتذة وطلابا يسعدون بالمعرفة ، ويلتذون بالبحث ويحترمون الكتاب ، ويرون الدراسة عبادة ، والسهر فى التحصيل تهجدًا ، ونفع الأمة بأى نوع من العلوم قربة إلى الله . .

نريد زراعًا وصناعًا وتجارًا ينمون اقتصاد أمتهم كما ينمون ثرواتهم ، ويدركون أن غنى الأمة يجعلها قادرة على صون شرفها وحفظ حقوقها ، وأن الجهاد المالى صنو الجهاد النفسى ، وأن الأمم التى تتسول الإعانات من الدول الكبرى لن تعلو لها رسالة ما دامت يدها السفلى . .

نريد ناسًا يحافظون على المال العام . ويشعرون بحق الله فيه ، وأن الأخذ منه دون وجه حق غلول ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾[2] .

(١) الأعراف : ٢٠١ .
(٢) آل عمران : ١٦١ .

نريد حكامًا لايعبدون أنفسهم! يبرءون من جنون العظمة وشهوة السلطة، ويعرفون أن كل رئيس يجيء يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، فكه عدله أو أوبقه جوره كما جاء فى الحديث الشريف.

إن حكام المسلمين من زمان قريب آذوا الله ورسوله، واستهلكوا شعوبهم حتى فنيت أو كادت خصال الإباء والأنفة، لطول إذلالهم لمن أعز الله وأعزازهم لمن أذل الله !!

إن الإسلام وحده هو صانع هذه العناصر التى لا تتم لنا حياة إلا بها، والأمر كما قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

ربما استطاعت أمم أخرى أن تعيش قصيرًا أو طويلاً وفق فلسفات مادية أو خلقية لا صلة لها بالسماء! لكن أمتنا تحول مزاجها وكيانها إلى جهاز فريد لايدور فيه إلا مفتاح واحد هو الإسلام، وستذهب جميع المحاولات الأخرى سدى، لامحالة.

ثم مَنْ مِنْ أهل الملل والنِّحَل ترك دينه؟ لقد أقبل اليهود فى موكب تظله صحائف التوراة والتلمود، ويتقدمه صخب من مزامير آل داود، ورأى الناس بين القطبين الشمالى والجنوبى هذا الولاء الدينى العاصف فما أنكروا له صيحة، مع أنها صيحات جزارين، وديست مدننا وقرانا فما رثى لنا أحد !!

فهل كل ولاء مقبول إلا الولاء للإسلام؟ وهل كل حل حسن إلا الحل الإسلامى؟

لقد آن الأوان ليختفى إلى الأبد أولئك الساسة العرب الذين يكرهون الإسلام، ويطلبون من أمته أن تدير ظهرها لكتاب الله وسنة رسوله، الواقع أنهم ثرثروا أكثر مما يطاق، وطال بقاؤهم أكثر مما ينبغى..

على أن الحل الإسلامى المنشود يخشى عليه من التزوير فى أيام اعتقلت فيها الحقائق، وتجرأ المفتون الكذَبة على التزوير، وتصوير الإسلام دينا لايحترم الشورى مثلاً، أو لا يعترض استغلال النفوذ، أولا يكترث لهضم الجماهير..

إن الحل الإسلامى، لايحتاج إلى عبقرية فى تصوره وتصويره، لأنه سهل المأخذ

(١) الرعد: ١١.

من مصادر الإسلام المعصومة، والواقع أن العوائق دون تحكيم الإسلام خلقية لا علمية، وأن الحل الإسلامى يعرفه أهل الذكر، ولكن إبعادهم مقصود مرسوم...

إن «المراكسة» فى الصين وروسيا، شكوا من تحكم الفرد، ومع أن نظمهم بطبيعتها استبدادية، فقد قرروا أن تدور شئونهم فى وسط جماعى. يتم فيه تبادل الآراء والبحث عن الصواب.. وأسرة الدول الأوربية تأبى أن ينتسب إليها إلا الحكام «الديمقراطيون».

ليس هناك إلا العالم العربى والإسلامى الذى يعيش وحده فى ضباب من الدعاوى والترهات، إنه وحده دون أقطار الأرض كلها هو الذى يقول فيه حاكم: أنا صانع القرار.. وهو وحده الذى يسمع فيه أن الحاكم لا يُسأل عما يفعل!!

إن الإسلام غريب فى هذا الجو الآسن الكريه، والحل الإسلامى لايؤخذ من أفواه الجهال والكذبة.

٢٦. ماذا صنع الإسلام لحفظ العقل والنفس والمال..؟

ألف الناس أن تكون العبادات أقرب إلى شئون الغيب عنها إلى دائرة المنطق ، لكنى أرى غير هذا ، فأنا أنادى إلى الصلاة لا بدقات طبل ولا بزمارات إنذار ، وإنما صوت يشدنى من عقلى . .!

وعندما أنصرف من صلاتى لا أجزى إلا بما عقلت منها!

والدين الذى اعتنقته قام على معجزة عقلية ، تعرفنى أن الله واحد فى الأرض والسماء لأنه ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(١) .

وفى القرآن مئات الآيات التى تتحدث عن العقل ووظائفه والأساليب الصحيحة لاستدلاله ، وبعده عن الأوهام والظنون!

وقد أحصيت فى مقال لى ست عشرة آية تنوه بأولى الألباب ، وترى أنهم هم الناس حقا! وهل الإنسان إلا عقله؟ ما أصدق قول المتنبى :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان

ومن أجل ذلك يرى الإسلام ضرورة صقل العقل وتوسيع آفاقه وزيادة إشراقه بأنواع العلوم والتجارب ، إن الأعمار العقلية للناس تنقص أو تزيد وفق مايفيدون من تجربة ويتلقون من تعليم .

والحق أن الأمم تتقدم أو تتأخر بمقدار أنصبتها من العلم وقدرتها على تحويله إلى حضارة مثمرة . . والعقل الصحيح هو الذى يقرأ آيات الله فى الكون كما يقرؤها فى المصحف . أما التخلف العقلى فستارة تسدل على البصائر والعيون فلا تكشف سرا

(١) الأنبياء : ٢٢ .

ولا تدعم حقا ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(١) .

إن الأمم المتخلفة عقليا كالأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يوضعون فى وصاية الكبار حتى ينضجوا! وربما كرهت الأمم المتخلفة هذه المنزلة المهينة! بيد أن سنن الله الكونية تفرض نفسها طوعا أو كرها . .

وقد رأيت عابدين فى أفكارهم ـ لا فى قاماتهم ـ قصر فشعرت بخيبة الأمل ، لأن هؤلاء العابدين كانوا بلاء على دينهم ، وربما ضروه من حيث أرادوا نفعه ، لأنهم كالدبة التى قتلت صاحبها . .!

يصقل العقل خلال مراحل الدراسة المتتابعة ، ويصقل العقل بالحفاظ على سلامة الحواس ، وعافية البدن ، ويحفظ بازدراء المسكرات والمخدرات والمفترات التى تنال من وعى المرء وكرامته ، ويحفظ قبل ذلك وبعده باستفهام الرشد واستمداد النور منه سبحانه!!

وقد وردت فى ذلك كله توجيهات من الكتاب والسنة يطول سردها . .

وننتقل من صون العقل إلى صون النفس . إن احترام الإنسانية كلها يبدو فى احترام فرد واحد قال تعالى :﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾(٢) . وجاء الإسلام فجعل النفس الإنسانية أقدس من الكعبة المشرفة ومن الأشهر الحرم قال عليه الصلاة والسلام : «...ألا وإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال اللهم فاشهد ـ ثلاثا ـ ويلكم ، لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض...» .

ونظر عبدالله بن عمر إلى الكعبة وقال : **ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك** ، حرمة دمه وماله وعرضه . .!

ومقتضى الإيمان ألا يكون المؤمن مصدر إفزاع أو ترويع لغيره ، ومن جوامع الكلم

(١) الحج : ٤٦ . (٢) المائدة : ٣٢ .

لرسول الله ﷺ «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن» يعنى كما تربط الأغلال يدى الرجل فلا يقدر على عمل شىء ، يقيد الإيمان يدى المؤمن فلا يعتدى على نفس ، المؤمن أشرف من أن يفتك بأحد . .!

وفى الحديث كذلك «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» ، «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لكبهم الله فى النار» .

ويرى الإسلام من المحافظة على الحياة أن يعتنى المرء بصحته ، ويستكمل أسباب عافيته ، ويهتم بحواسه . وأعضائه وسائر بدنه ، فإن البدن القدير على أداء الواجبات الناهض بشتى الأعباء من أجل النعم . .!

وقد كان من أدعية النبى ﷺ : «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعلها الوارث منا» أى استبقها مادامت الأرواح فى الأجساد حتى إذا متنا خلفناها فى أبدائنا فورثتنا ، بدل أن نرثها ونحن على ظهر الدنيا . .

ومن المحافظة على الحياة توقى الأمراض ، وتناول الأدوية وقد رفض عمر السفر إلى أرض موبوءة بالطاعون ! قيل له : تفر من قدر الله؟ قال : أفر من قدر الله إلى قدر الله!

وقد أصاب أمير المؤمنين السنة ، وأخذ كلمته أحد العارفين فولد منها هذه الحكمة «الرجل كل الرجل من يغلب قدر الله بقدر الله» .

إن الله يمهد للإنسان السبيل ، وعليه بعدئذ أن يقدم لا أن يحجم ، وهذا معنى قول الله فى ذى القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(١) .

إن النفس شىء غال ، وقد كرمها الإسلام فلم يهنها ، وصانها فلم يضعها حتى تؤدى فى الحياة رسالتها .

ويجىء بعد النفس المال ، وهو قوام الحياة الشخصية والعامة ، فما من أحد يستغنى عن المال ليطعم ويلبس ويقوت عياله ، ويصون مروءته ، وما من أمة تستغنى عن المال لتحمى كيانها وتدبر مصالحها ، وتستبقى ذاتها .

(١) الكهف : ٨٤ ـ ٨٥ .

ولذلك أمرنا بتأثيله وتنميته ، ونهينا عن جعله بين أيدى السفهاء ، فلا يحسنوا التصرف فيه ولا الإفادة منه قال تعالى :﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾(١) .

ونظرا لما للمال من آثار خاصة وعامة طلب الإسلام من صاحبه أن يرد عنه عدوان الغاصبين! ولو بذل دونه دمه!! روى النسائى عن مخارق بن سليم الشيبانى أحد الصحابة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، الرجل يأتينى ليأخذ مالى؟ قال : ذكره بالله! قال : فإن لم يذكر! قال : فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين! قال : فإن لم يكن حولى أحد من المسلمين؟ قال : فاستعن عليه بالسلطان! قال : فإن نأى السلطان عنى؟ قال : قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة ، أو تمنع مالك . تحميه .

وقد روى مسلم فى صحيحه حديثا يؤكد هذا المعنى ، ويحكم بالشهادة لمن قتل دون ماله!!

وإنما ذكرنا ذلك ليعرف المسلمون قيمة المال ، وضرورة حفظه والذود عنه! ترى أيوصى الشارع بهذه الاستماتة فى شىء تافه ؟ كلا كلا . . إنه لولا خطورة المال فى الحياة الخاصة والعامة مافرض القتال دونه .

ومعنى إيجاد المال وتحصينه إيجاد منابعه وتفجيرها ، وهل منابع المال إلا الضرب فى الأرض ، واستغلال ظاهرها ، واستخراج باطنها ، واستثارة البر والبحر ليجودا بخيرات الله المودعة فيهما؟

والحق أن المال سلاح رهيب ، والسلاح لايحمد أو يعاب لذاته! ولكن يحمد فى يد الشجاع المدافع عن حقوقه ، ويذم فى يد الظلوم المعتدى على غيره!! إنه وسيلة إلى الجنة أو إلى النار ، بطريقة استخدامه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١)﴾(٢) !!

(١) النساء : ٥ .
(٢) الليل : ٥ ـ ١١ .

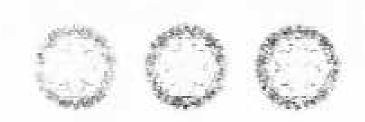
وقد نظر بعض الجهال إلى المال فى أيدى الأشرار ، وكرهوه لأنهم يستعينون به على الفجور والفساد ، ثم شرعوا ينظمون قصائد طويلة فى هجاء المال ، وحسن التخلى عنه! حتى وهم العوام أن المال شر فى كل يد ، وأن البعد عنه غنيمة . .!!

ومعنى البعد عنه البعد عن مصادر كسبه ، وأسباب اقتنائه ، وشاع هذا الفكر الغوغائى بين الجماهير ، فإذا المسلمون من بضعة قرون لا يحسنون استخراج معدن من الأرض ، ولا إجادة صناعة من صناعات السلام أو الحرب!

وإذا هم يحسبون الصعلكة تقوى ، والافتقار فى الدنيا هو الاغتناء فى الآخرة ، وسجلوا فى بعض كتب السنة والتصوف أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر!!

ونشأ عن هذه الجهالات السائدة فى مصادر الثقافة الدينية انهيار شامل للعالم الإسلامى لأن مواهبه الدينية والمدنية تبلدت وفسدت ، حتى الأقطار التى رزقت سعة فى ثروتها تيسر لها ذلك من جهد الأجانب فى تحصيل خيراتها واستخراج كنوزها . .!!

إن العقل الإسلامى تحيط به غشاوات سميكة ، ولابد من تمزيق هذه الغشاوات إن أردنا الحياة ، ولابد من مطاردة الغوغاء الذين فرضوا أنفسهم على الثقافة الدينية ، وهم لا يصلحون لا لدنيا ولا لدين .



٢٧. ما دور الإسلام فى ترشيد الضمير الإنسانى...؟

نظرة الإسلام الأولى إلى القلب الإنسانى - أو الضمير كما يقول علماء الأخلاق - فإن سلامة هذا القلب من العلل ، وثبات وجهته إلى الخير ، تعنى الكثير من توفيق الله ورضوانه ، قال رسول الله ﷺ : **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى هاهنا. التقوى هاهنا. ويشير إلى صدره..»** .

نعم فالصدر المنشرح بالحق ، المستقر على النهج يؤتمن على الدقيق والجليل ، ويضع طابعه الطهور على كل شىء وتحفه بركات الله ، لأن صلته به قائمة دائمة . .

ونحب أن نسوق أمثلة تبين كيف يكون القلب سليما أو كيف يكون الضمير نقياً . .

المرء فى طفولته ويفاعته قد يحب الظهور ، ويسره سماع الثناء عليه ، وقد يبذل جهوداً شاقة فى هذه السبيل . . إن الرياء ليس مستغربا على الطبيعة البشرية ، فإرضاء الناس هدف حقيقى فى المراحل الأولى من العمر ، ثم يكبر المرء وتسمو نظرته ويتجه إلى الله ، إن المرائى لا يرى إلا الناس ، فهو يعمل لهم ، أما المخلص فهو يرى رب الناس ولذلك يعمل له .

ويتعهد الدين هذا التسامح ، فهو يوصى بتمحيض العمل لله ، لأن الإنسان إذا أشرك الناس مع الله فى طلب الرضا رفض الله عمله!

إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له وحده ، ومن ثم ترى المؤمن حقا يجيد عمله ويؤدى واجبه ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء أثنى عليه رؤساؤه أم ضاقوا به ، إنه يحسن الصنيع على أية حال وفى أى وضع .

والإنسان بطبيعته يحب أن يكافأ على عمله ماديا أو أدبيا ، وربما ترك العمل إذا لم يجد له جزاء عاجلاً ، وقد يتراخى فيه أو لا يكترث بإجادته إذا كان الجزاء قليلاً أو مؤجلاً . . لكنه إذا صدق يقينه أحسن أداء واجبه! وادخر ثوابه عند ربه ، وعد مايقبضه فى اليوم الآخر أضمن وأبقى . .!

عمل الضمير هنا تثبيت المرء على الوفاء بما عليه ولو غمطه الناس، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال للأنصار: **إنكم ستجدون أثرة بعدى! قالوا: فما تأمرنا؟ قال: أدوا الذى عليكم، وسلوا الله الذى لكم!!**

الواجب يؤدى على وجهه الكامل، وحسابى على الله والأمر له..!!

إن الانبعاث إلى العطاء يجب أن يكون بدوافع ذاتية، غايتها استرضاء الله وإن جحد الخلق ﴿**الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾(1).

قال المؤرخون: لاحظ صلاح الدين وهو يقاتل الصليبيين أن النار اشتعلت مرتين فى معسكرات الأعداء مخلفة وراءها الدمار والقلق! وبينما هو يرقب جهة العدو لاحظ أن النار بدأت تشتعل، ورمق الفاعل - بعد مابدأ الحريق - يتحيز إلى جند المسلمين، فأمر فجىء به، فلما مثل بين يديه قال له: ما اسمك؟ قال الرجل: يعلمه الله! قال له صلاح الدين مطمئنا: إنى أريد مكافأتك! قال الرجل: لو أردت المال ماجئت هنا، وانصرف لشأنه!!

هذا جندى باسل حضر الوغى ليقاتل فى سبيل ربه، واكتفى وهو يناضل العدو بنظر الله إليه، فلما استدعاه السلطان كره أن ينال على جراءته ثمنا.. حسبه ماعند الله!!

والحق أن انتصار المسلمين، وفتح بيت المقدس، وكسر حدة الغارة الحاقدة، وجمع فلول الأمة الممزقة كان من ورائه عدد من ذوى الضمائر الموصولة بالله الراغبة إليه، قامت بعملها فى صمت وعزلة وعفة..!

لعل السلطان نفسه كان يضىء الطريق لهذه القلوب الطيبة حين قرر أن يشارك فى حمل الأحجار على عاتقه بكرة وأصيلا، ولو شاء لأصدر الأوامر وراقب المنفذين، إنه أبى إلا أن يسد الثغرات ويشيد الحصون بنفسه مع جيشه!!

ونتدبر عبارة القرآن فى وصف هذه الضمائر البارئة من العلل قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾(2).. سليم من أوضار الغش

(1) الليل: ١٨ - ٢١.
(2) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

وجنون العظمة ولفت الأنظار! إن الشخص الذى لا يعمل أو لايجيد عمله إلا ابتغاء ثناء يسمعه، أو مال يأخذه لن يعمل شيئًا طائلا إذا انقطع الثمن، وابتعد الناس!

ومعنى هذا أن الخير عنده غرض عابر لا باعث أصيل، إن قلبه فى الحقيقة ناضب من حب الخير والاندفاع الذاتى إليه، إنه قلب غير سليم.

وربما خامرت القلب تطلعات دنيا إلى مال أو جاه، بيد أن الإيمان يطاردها ويبقى الضمير متشبثًا بربه مؤثرًا له وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ**﴾(1).

إنه ليس غريبًا على النفس أن تحب المال والجاه، بيد أن هذه المحبة يجب أن تنهزم أمام وجه الله وارتقاب جداه!

ولو نقبنا عن أسباب الزلازل التى تهز كيان الأمم لوجدناها تلك الضمائر الميتة، تلك القلوب التى تيبست، فهى لاترشح بنبل ولا تهش لفضيلة ولاتشمئز من قبيح.

وقد ذكرت السنة الشريفة أمثلة للضمير الحى عندما يتغلب على المغريات ويهزم الوساوس ويسبح بقوة ضد التيار وينجو!!

فعن أبى ذر رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله.**

فأما الثلاثة الذين يحبهم: فرجل أتى قوما فسألهم بالله، ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم، فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم، فأعطاه سرًا، لايعلم بعطيته إلا الله والذى أعطاه.

وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا فقام رجل يتملقنى ويتلو آياتى...

ورجل كان فى سرية فلقى العدو، فانهزموا، فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له.

وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله فالشيخ الزانى، والفقير المختال، والغنى الظلوم...»

وظاهر أن الثلاثة الآخرين ماتت قلوبهم، فاستمرءوا الرذائل مع ضعف الأسباب التى تدفع إليها.

(1) ق: ٣٣، ٣٤.

ومن صور الضمائر الحية ، ماذكرته أحاديث أخرى ، عن الرجل يقدر على الفاحشة ، ولكنه يدوس مغرياتها ، ويستبقى نفسه طاهرا ، وصلته بالله زاكية .

وصورة هذا الرجل الذى استأجر عاملا عنده ، فأدى واجبه ثم عرض له ما صرفه قبل أن يأخذ أجره وبعد سنين طوال رجع العامل يطلب حقه الذى تركه من زمن بعيد!

كان رب المال ، قد أدار الأجرة فى عمله فنمت حتى أمست ثروة! فلما جاء العامل أعطاه الأصل والنماء ، والعامل مدهوش!

إن الإيمان يضع ضوابط صلبة للسلوك ، ويجعل من القلب ديدبانًا صاحيًا يحرس الحقوق والواجبات ، فلا حيف ولا فوضى . .!

وبعض الأنظمة تجعل من سلطان الدولة شبحًا رهيبًا يحمل الناس حملا على العمل ، والإتقان! فهل تم ذلك؟ لا ، لأنه ليس فى مقدور نظام ما أن يضع شرطيًا مع كل عامل فى الأرض أو فى المصنع لينشط ، ومع كل مقاول حتى لايغش ، ومع كل طبيب حتى لايتهاون ، ومع كل تاجر حتى لايحتكر ، ومع كل رئيس حتى لايستبد ويطغى .

وإذا خان الشرطى فهل نجىء له بشرطى آخر؟ قد يقال : إن رفع المستوى الثقافى وتبصير الكبار والصغار بما ينبغى وما لا ينبغى يمكن أن يمنع هذه المحذورات .

والواقع أن الجرائم الكبرى لم يقترفها إلا مجرمون على حظ كبير من المعرفة ، وأن النضج العقلى لا يستلزم الطيبة والإخلاص والشرف ، وكم من أذكياء أساءوا إلى أنفسهم وأممهم . .! ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

إن القلب النقى ، الغيور على الحق الحريص على الشرف ، القاهر للأثرة ، المحب للناس لايصنعه إلا إيمان وثيق ، وتعلق بالله وحده .

والواقع أن حديث القرآن عن الله سبحانه وتعالى وعن تاريخ الماضين الطويل ، وعن البعث والحساب والثواب والعقاب ، وما شرعه الله سبحانه من عبادات كثيرة ، إن ذلك كله عناصر لضمان سلامة القلب ، واتجاهه الثابت إلى الحق والخير .

(١) الجاثية : ٢٣ .

٢٨. ما موقف الإسلام من العنصرية السائدة فى بعض الحضارات؟

ظهر خلال هذا القرن الزعيم الألمانى «هتلر» يزعم أن الدم الآرى أرقى من غيره ، وأن الشعب الألمانى بطبيعته يرجح غيره من الشعوب السامية ـ يعنى اليهود والعرب وأشباههم ـ وتحول هذا الزعم إلى عقيدة تساند مشاعر الكبرياء ونزعة السيادة عند الألمان ومن على مستواهم .

وهذا كلام خرافى لا وزن له! وإن كان راسبا لا فى نفوس الألمان وحدهم ، بل فى نفوس الأوربيين وأفراد الجيش الأبيض عمومًا !

إن بنى آدم من ناحية الخلقة يستوون فى أنهم نفخة من روح الله الأعلى حلت فى إهاب من تراب هذه الأرض ، فالبشر كلهم ينتميهم أصل واحد ، ويجمعهم نسب مشترك . قال تعالى يشرح تلك الحقائق : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[1] .

لا فروق بين جلد أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر ، إن هذه الألوان المختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف فى ألوان الأزهار والورد ، ولا دلالة على عراقة أو تفاهة .

بيد أن كثيرًا من الناس يسرهم أن يختلقوا من عند أنفسهم هذه الفروق ، وأن يقيموا حولها عصبيات ، وأن يجعلوا لها وزنا خاصًا فى التقديم والتأخير ، والقبول والرفض!

وقد رأيت البعض يتشبث بهذه الأوهام لأنها رجحت كفته دون جهد! ومنحته

(١) السجدة : ٧ ـ ٩ .

شرفًا جعله - دون حركة - يسبق الناشطين! إنه لشيء ظريف أن يحسب المرء سيدا لأنه تكون فى بطن معين، ونشأ الناس من ماء مهين، أما هو فمن ماء شريف.

إنه - مع احترامنا لقوانين الوراثة - نقرر أن الوراثة لاتنشئ عظمة ولا تكسب نجاحًا، فهناك أنبياء من أصلاب كافرة، وهناك فجار من أصلاب أنبياء، وقد كان أبو الطيب شاعرًا مفلقا من أب لا يعرف شعرًا ولا نثرًا، وكان أبو العلاء فيلسوفا متشائمًا من أب لا يدرى شيئًا من الفلسفة..

ثم إن روافد الوراثة غامضة المنبع والكنه فى أبناء الجيل الواحد، فكيف إذا تكاثرت الأجيال؟ ونحن نعرف النكتة المروية عن امرأة جميلة أحبت عبقريا دميما وعرضت عليه الزواج لينجبا ابنا يرث جمالها وذكاءه! فقال لها الرجل: أخشى أن يرث غباوتك ودمامتى!!

إن القول بأن جنسا ما ذكى بأصل الخلقة، وجنسا آخر غبى بأصل الخلقة قول فيه ادعاء ظاهر، إن ظروف البيئة هى التى تصنع الأعاجيب، وهى التى تنمى المواهب أو تقتلها، بل هى التى تحيى الفطرة أو تميتها.

والجنس الأبيض الذى يعمر غرب أوربا وشمالها، والذى يفرض وصايته على العالم كله، كان أياما طوالا يشتهر بالغباوة والانحطاط، وقد نقلنا فى كتابنا «مع الله» كلام المستشرق «فيليب حتى» عن تأخر الأوربيين الحضارى وتفوق عرب الأندلس عليهم «... فى الوقت الذى كانت فيه جامعة «أكسفورد» ترى الاستحمام عادة وثنية، كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام فى مؤسسات فاخرة...» ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة الشمال - هكذا كان آباؤنا يسمون سكان أوربا - وفكرتهم عنهم ما ورد فى كلام عالم «طليطلة» صاعد القاضى المتوفى سنة ١٠٧٠ م فقد كتب عنهم: أن إفراط بعد الشمس عن مسامة رءوسهم برد هواءهم وكثف وجوههم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة! فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم وانعدمت دقة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العمى والغباوة!!

أرأيت هذا الوصف؟ إنه لأهل أوربا الذين يقودون العالم الآن، وليس للهنود أو الزنوج أو العرب.. أو بقية العالم الثالث!!

والعالم اليوم ينظر إلى هزائم العرب أمام اليهود، ويبتسم ساخرًا..! وقد كان آباء أولئك المهزومين يحتقرون الجبن اليهودى ويبرءون منه، ويقولون لنبيهم فى أول قتال له مع الوثنية: لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون!

بل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، إن خضت بنا هذا البحر خضناه معك، مايتخلف منا أحد!!

إن الإسلام بين أن الأفراد والأجناس يصنعون يومهم وغدهم بأنفسهم، وهم فى سباق مفتوح يتقدم فيه من شاء ويتأخر فيه من شاء لا مدخل للون أو عرق، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[(١)] فقد يسبق الأسود فى الدنيا والآخرة، أو يقع العكس! وقد ترجح كفة رجل من سواد الناس، وتطيش كفة آخر من أبناء الرسل، أو العكس ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[(٢)].

وجاء فى السنة أن النبى ﷺ نبه قومه: لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم وقال: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وهذا مصداق الآية الشريفة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[(٤)].

ومع كثرة ما نبه الإسلام إلى مبدأ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(٥)] لوحظ أن العرب يغالون مغالاة منكرة بالأنساب والحِرَف، ويجعلونها محور تقدير جائر وعصبيات عمياء.

الزراعة مهنة تافهة، وكلمة فلاح لامرئ نازل المرتبة، وقد كان الفرزدق يهجو جريرا بأن أباه حداد! أما هو فإن الذى سمك السماء بنى له بيتا دعائمه أعز وأرفع! م؟ بغير شىء!

(١) المدثر: ٣٥ - ٣٧. (٢) الأعراف: ٨ ، ٩.
(٣) المؤمنون: ١٠١. (٤) الأحقاف: ١٩. (٥) الحجرات: ١٣.

وفرضت تقاليد البدو نفسها على المجتمع العربى ، بل على جانب من الفقه الإسلامى ، فإذا عدد كبير من رجال الفقه يرون أن الهاشمية لا يكافئها عربى عادى ، وأن العربية لا يكافئها أعجمى ، وحكم القضاء الشرعى بتطليق فتاة من أسرة شريفة النسب تزوجت بالشيخ على يوسف محرر صحيفة «المؤيد» المشهورة .

أما حديث الرسول ﷺ : «إذا أتاكم من ترضون دينه ومروءته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» فقد وضع على الرف!

وكما تسللت هذه التقاليد إلى ميدان الفقه تسللت إلى ميدان الحكم والسياسة ، فكانت عصبيات القبائل قديما وعصبيات الأسر حديثًا من وراء طلب الرياسة وبسط النفوذ .

وعندما يبحث سبب فساد المجتمع الإسلامى وانهيار الحضارة الإسلامية عمومًا ، فستكون هذه الجاهليات من أبرز العلل .

وإلى يوم الناس هذا لاتزال الكفاءة الشخصية تؤخر أمام مكانة العائلة وقيمة النسب! ذلك فى وقت يشيع فى أرجاء العالم تنافس لا حدود له فى البحث العلمى والإنتاج الغزير ، وتجويد السلع ، وكشف المجهول ، ومراقبة الخصوم ، وكسب الأصدقاء ، إنه تنافس ترتبط به مصائر أمم ومستقبل رسالات! ترى ما موقفنا؟

جاء فى السنة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ألا إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا، جعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان خير من فلان بن فلان! فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم، أين المتقون؟»

وعن جابر خاطبنا رسول الله فى أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد! ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟ قالوا بلى يارسول الله! قال: فليبلغ الشاهد الغائب..»!

وروى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : «لينتهين أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدحرج النتن بأنفه! إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية.أى كبرها. وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى، الناس بنو آدم وآدم من تراب...!!» .

٢٩. ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها، كالرسم والنحت والتصوير؟

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمى باهر ، وصل إليه الإنسان بعد قرون من البحث المضنى والتجارب الغالية! ولم يكن عجبا أن يستغل الإنسان كشوفه لأسرار الكون وقواه الخفية فى ترقية نفسه وترقية معايشه ، بل إن ذلك أقرب إلى الحكمة من استغلال هذه الكشوف فى تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار الجماعى على الناس!

وأحسب أن التقدم الصناعى العام وفر للجماهير متعا ما كان يحصل عليها الملوك الأقدمون! الأطعمة أنعم ، والأشربة صنوف ، والملابس تفضل الحرير نسجا ولونا ورقة ، وأدوات النقل أغنت عن الخيل والبغال والحمير ، والقيان التى كانت تغنى فى مقاصير الأمراء انتقل صوتها إلى الأكواخ ، ونام على لحنها العمال والفلاحون ، والمرء فى المشرق يكلم صاحبه فى المغرب بثمن ميسور ، وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى ، وملكوا غدا أنصبة أكثر . .!

ومع هذا كله فالأعصاب مشدودة ، والأطماع طاغية ، والبكاء على القليل المنشود يفسد السعادة بالكثير الموجود ، وتحاسد الأفراد والأقطار أشعل البغضاء هنا وهناك!

وقيل فى وصف العالم : إن عضلاته أكبر من فكره ، ولو أنصفوا لقالوا : إنه عالم يذكر نفسه ، وينسى ربه ، ويجحد حقه ، ويمارى فى لقائه ، ويظن أن هذه الدنيا كل شىء ، فلا امتداد لوجود آخر ، ولا حياة إلا هنا . .!!

وأنا رجل مسلم أحب الحياة وأبتهج بطيباتها! إن الله استضافنى فى كونه وأطعمنى خيره فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبذول ، ومن السفاهة كذلك أن أضن بشكر المنعم!

إن الله تبارك اسمه يعطى الفضل ولا يطلب إلا الاعتراف بالجميل ، فهل هذا ثمن فادح ؟

يبدو أن ناسا كثيرين يعز عليهم دفع هذا الثمن ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(١) .

على ذلك الأساس أنظر إلى ماقدمته الحضارات قديمها وحديثها! إنه ـ كما علمنى الإسلام ـ لى وليس لغيرى ، أليس يقول الله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(٢) ؟

ومن ثم فالأصل فى الأشياء الإباحة ، ولا تحريم إلا بنص قاطع ، والواقع أن نفرًا من سوداويى المزاج أولعوا بالتحريم ، ومنهجهم فى الحكم على الأشياء يخالف منهج نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام الذى ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن آثما ، فإن كان آثما كان أبعد الناس عنه ، روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : **«لاتشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم فى الصوامع والأديرة، رهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم»** .

وقد أشاعت المدنية الحديثة «الراديو والتليفزيون» وغيرهما من الأجهزة الناقلة للثقافة والملاهى على سواء ، ومعروف أن هذه الأجهزة أدوات غير مسئولة عما يصدر عنها ، وأن المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين ، ففى استطاعتهم أن يقدموا النافع ويحجبوا الضار . . !

لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الأجهزة لإشاعة اللغة السليمة وتذوق الآداب الرفيعة وحماية الأخلاق ، ودعم التقاليد الفاضلة ، بل كان من الممكن أن تدرب الألوف على إتقان حرف نحن محتاجون إليها ، وأن نرفع مستوى الأداء لأشغال كثيرة ، فإن البطالة السافرة والمقنعة تفتك لدينا بأعمار الناس .

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا وأوقفت مسيرتنا ، إن وسائل الإعلام لو أحسنا استغلالها تصنع الكثير ، ولكن ذلك لاتستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالة فى الحياة ، أما الأمة الذنب فقد سقط عنها التكليف لأن غيرها يشدها .

(١) سبأ : ١٣ . (٢) البقرة : ٢٩ .

قد يفهم من ذلك أنى أحارب الغناء والموسيقى والترويح عن النفس . . لا ، ولكنى ألحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلا وتغنى كثيرًا ، والاستجمام حق المرهقين لا حق القاعدين !

أما الغناء فكلام ، حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه! وما نحارب إلا غناء هابط المعنى واللحن .

لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الإطلاق ، وقد احتج البعض بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ... ﴾(١) .

ولعمرى أن من يشترى جد الحديث أو لهوه للأسباب المذكورة فى الآية جدير بسوء العقاب ، أما من يريح أعصابه المكدودة بصوت حسن ولحن جميل فلا علاقة للآية به ، وكما يقول ابن حزم : لو اشترى مصحفا للإضلال فهو مجرم .

ويبدو أن اقتران الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش . وما يشاع عن البيئة الفنية من تحلل ، هو الذى جعل عددًا من العلماء يحرمه ، وإلى هذه الجملة من الرذائل يشير حديث البخارى إلى من يستحلون الحر والحرير والخمر والمعارف . .

بيد أنه ليس من الضرورى أن تجتمع هذه العناصر كلها عند سماع أغنية . وعلى أية حال فإذا كان الغناء مقرونا بتلك المحرمات فهو مرفوض ، أما إذا برئ منها فلا شىء فيه .

والموسيقى كالغناء وقد رأيت فى السنة أن النبى ﷺ مدح صوت أبى موسى الأشعرى ـ وكان حلوا ، وقد سمعه يتغنى بالقرآن ـ فقال له : **«لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»**! ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك . .

وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون تحرج ، ولا أدرى من أين حرم البعض الموسيقى ، ونفر من سماعها؟

(١) لقمان : ٦ ، ٧ .

على أن الألحان تختلف فى تأثيرها وصداها النفسى ، فإذا كان هناك مجال لاعتراض فَعَلى الأصوات الخنثة والألحان الطرية المائعة .

ونعود إلى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والقليل من اللهو ، ولو رزقنا بفنانين ذوى شرف ومقدرة لأمكن تحويل الفنون إلى عوامل للبناء لا للهدم ، ولإثارة المشاعر النبيلة لا إهاجة الغرائز الدنيا .

أما الصور فيجب أن نفرق بين نوعين : المجسم الذى يصنعه المثالون الآن لأغراض شتى! والرسوم التى توضع على المسطحات من أوراق وأقمشة وغير ذلك .

والتصوير سواء كان شمسيا أو قلميا هو جزء من الطب والأمن والعلوم الكونية والحيوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة ، والأصل فيه الإباحة لحديث مسلم **«إلا رقما فى ثوب»** ولحديث رزين سئل ابن عباس عن أجرة كتابة المصحف ، فقال : **«لا بأس إنما هم مصورون ، وإنهم إنما يأكلون من عمل أيديهم»** .

ولم يقل أحد إن صورة الوجه فى المرآة محرمة ، ولا يقول أحد إن إثباتها بطريقة أو بأخرى تحول المباح إلى محرم .

ولا يحرم من هذا النوع إلا ما حمل طابعا دينيا لعقائد يرفضها الإسلام كصور بوذا ، أو إبراهما ، أو صلبان النصارى ، أو أى شعار دينى يخالف التوحيد .

كما يحرم أى تصوير يخل بالآداب ، ويحرك الغرائز إلى المعصية .

أما التماثيل المجسمة فإن النصوص الواردة تتظاهر على رفضها ، ما لم تكن ألاعيب للصبية أو عرائس هزلية ، كحلوى المناسبات المختلفة ، فإن أحدًا لا يفكر فى توقيرها أو عبادتها .

ولقد رأيت بعينى من يعبدون هذه الأصنام فى جنوب آسيا ، ورأيت فى مصر من يحيى بخشوع تمثالا لعبد الناصر!! وذلك أثناء نقله من مكان إلى مكان . .!!

وأعرف أن هناك من رجال الفتوى من يحرم التصوير كله سواء كان مجسما أو كان رسماً على ورق ، وأخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملابساتها سببًا فى ضياع الدين والدنيا معًا!

ولنضرب مثلا بالمرويات التى جاءت فى قضية البناء! روى الشيخان عن خباب ابن الأرت قال: **إنّ المسلم يؤجر فى كل شىء ينفعه إلا فى شىء يجعله فى هذا التراب!**

وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : **«النفقة كلها فى سبيل الله، إلا البناء فلا خير فيه!**

وأخرج داود عن أنس أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : **«أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا بدّ منه»** .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : مر بى رسول الله ﷺ وأنا أطين حائطا من خص ، فقال : ما هذا ياعبدالله؟ فقلت : حائط أصلحه! فقال : **«الأمر أيسر من ذلك»** وفى رواية: **«ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»!** يعنى الموت أو الساعة!! والحديث رواه أبو داود وصححه الترمذى!!

هذه الآثار كلها لو أخذت على ظاهرها مابنيت مدينة ولا قرية! ولعاش الناس فى أكواخ لاتستر العورات إلا بجهد !

والواقع أنها واردة فى المكاثرة والمفاخرة والاستطالة على الناس! وبناء القصور جائز بلا ريبة!

فهل الذين يحرمون التصوير مطلقاً يحرمون بناء القصور؟

إنهم فى بعض البلاد لايزالون يرون الصورة فى التليفزيون محرمة ، وأقمار الأجانب تلتقط الصور لنا فى أيام السلام والحرب على سواء ، ونحن ندرى أولا ندرى .

٣٠. كيف أعلن الإسلام حقوق الإنسان...؟

خلق الله الإنسان ليكرم لا ليهان ، ولتسجد له الملائكة لا ليعيش مع الحيوان! ومع أن الإنسان يعانى على الأرض ما يعانى فهو مع بنى جنسه إذا صلحوا واستقاموا أفضل عند الله من ملائكة السماء ، وقد قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(١) .

ولكن المتأمل فى تاريخ البشر يجد أن جماهير كثيفة طحنها الذل والضياع! ربما أهزلها الجوع والدواب تجد ما تأكله! وربما فقدت حقوقها المادية والأدبية وعاشت كسيرة أسيرة وغيرها من الطير والحشرات ينطلق دون قيد!

من الذى أنزل بالبشر هذه الكوارث؟ لم يفعل ذلك ملك ولا جن ، لم يفعل ذلك ماء ولا هواء!

إن الذى فعل ذلك بعض البشر ، ناس لديهم فضول سلطة أو ثروة ، استغلوا سلطانهم وغناهم فى إيذاء الآخرين والحيف عليهم .

ومضت قافلة البشرية من قديم تتعسف الطريق ، وتكابر الوحى ، وتعارض الإنصاف ، وتدفن الأخلاق ، وتفرض الأهواء . . وأخيرا استطاع نفر من أولى العزم وحماة الحقيقة أن يقلموا الأظافر الحادة ، وأن يروضوا الطبائع النهمة ، وأن يضعوا دساتير حسنة ترد المظالم وتحمى الضعاف ، وتصون الحقوق فى أسلوب مفصل أوحت به سلسلة التجارب الطويلة فى محاربة الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى والانحراف الخلقى .

وعندما ننظر إلى المواد التى تضمنتها هذه الدساتير تعرف بدقة ما هى الحقوق التى يطلبها الإنسان والتى لا يزال الكثيرون يشكون فقدها ! .

إن المادة الأولى فى الميثاق العالمى لحقوق الإنسان تنص على أن الناس يولدون أحرارا ، يتساوون فى الحقوق والواجبات ، وكون الناس يولدون أحرارا متساوين كلمة نطق بها عمر بن الخطاب ارتجالا لا إعدادًا ولا تكلفًا ، بل انطلاقا من الفطرة الإسلامية! .

(١) الإسراء : ٧٠ .

ولكن هذه الكلمة ظلت دهرًا نظرية خيالية!! فكم من أناس ولدوا ولهم حقوق ليست لغيرهم ، وكم من أناس ولدوا مثقلين بواجبات ليست على غيرهم ، وكم من وظائف تفاوتت الفرص فى شغلها ، واختير لها من ليس لها بأهل ، ولا تسل كيف؟ فإن ناسا قبلك تجرعوا على السؤال فلم يوقف لهم على أثر أو عاشوا ناكسى رءوسهم لفرط ما حل بهم ، إن القدرة التى يملكها البعض ولا يدرى كيف امتلكها ـ فعلت مآثم ومناكر لا حصر لها ، ومع أنه الله ـ وهو المقتدر الأعلى ـ لا يظلم أحدا فى الملكوت الذى تفرد بحكمه ، وقال : **(ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا)** ، مع ذلك فإن ملاك السلطة والثروة دأبوا على الظلم فى أقطار كثيرة ، وبعد لأى قدرت الجماهير على تقييدهم بالدساتير والمواثيق التى وضعت نصوصها على ضوء التجارب المستفادة والذكريات المرّة . . . .!!

إن حقوق الإنسان ولدت فى ديننا مع النطق بكلمة التوحيد ، فعندما نؤمن بالله الذى لا يعبد غيره ولا يشرع غيره ولا يحكم غيره ، عندئذ تسقط الوثنيات كلها عقائدية كانت أو سياسية أو اجتماعية!!

نعم ، إن الإيمان بوحدانية الله وقيامه على خلقه وتدبيره لكل أمر ، والإحساس بأنه ـ وحده ـ الضار النافع الخافض الرافع المعطى المانع ، إن ذلك يمنح الإنسان حرية واسعة تجعله لا يبالى بطواغيت الأرض كلها ، لأنهم مهما فحش سلطانهم ليسوا إلا عبيدا لربه .

ونلحظ أن القرآن الكريم كرر قصة فرعون مع موسى بضع عشرة مرة ، ذلك لأن الفرعنة مرض نفسى شائع بين الحكام المستبدين ، وتأمل قول فرعون لقومه : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾(١) وقوله للسحرة لما آمنوا بعد ما شهدوا معجزة موسى تلقف ما صنعوا : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾(٢) . . إن ذلك الفرعون السخيف يرى ألا رأى إلا رأيه! فهو وحده الذى يصنع القرار! ويرى أن من اعتنق رأيا قبل أن يستأذنه مخطئ متمرد!! إنه ملك الضمائر والسرائر ، والناس عبيد إحساناته . .!!

ولكى ترقى الإنسانية هذه اللوثة : شددت الدساتير الحديثة فى أمر الشورى ، وإلزام أولى الأمر بها ، كما وضعت قيودًا حديدية على التصرف فى المال العام ومنع العبث فيه .

(١) غافر : ٢٩ .

(٢) طه : ٧١ .

وكذلك وضعت قوانين صارمة لحق كل إنسان فى محاكمة عادلة ، فلا يحبس أو يعتقل أو يؤذى جورًا وطغيانا ، وإنما يبقى إنسانا مصونا حتى يصدر القضاء النزيه حكما عليه فيؤخذ به وحده!

إن الرسول رأى وحشيا الذى قتل عمه حمزة أحب الناس إليه فما استطاع أن يسىء إليه بكلمة بعدما أسلم .

ورأى عمر بن الخطاب رجلا كان قد قتل أخاه فى الجاهلية ثم أسلم ، فقال له عمر : والله لا أحبك! قال : أذلك يمنعنى حقى يا أمير المؤمنين؟ قال : لا . . قال : لا حرج إذن ، إنما يأسى على الحب النساء!!

الحق أن سنة الرسول ﷺ وتقاليد الخلافة الراشدة كانت نموذجا أعلى لاحترام الإنسان والمحافظة على حقوقه ، كان النبى يدعو مَنْ له مظلمة عنده أن يقتص منه ، ويأخذ حقه! وكان خلفاؤه كذلك ، وقد رفض عثمان أن يستنفر أهل المدينة ـ خصوصا قبيلته ـ للدفاع عنه ، حقنا لدماء من استباحوا دمه!

ولو كان فى الحكم رجل آخر لأهلك نصف الناس للدفاع عن شخصه!!

فى هذه البيئة الحرة تربى الرجال الذين هدموا القيصرية والكسروية ، واستمع التاريخ إلى رجل منهم يقول فى أرض فارس : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده! جئنا نخرج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام!

كانوا يدركون أن الوجه الآخر لكلمة التوحيد هو حقوق الإنسان ، الإنسان الذى لاينحنى إلا لربه وحده!

من هنا كانت البيئة الحرة المهاد الفذ لتكوين الأمة المسلمة العارفة بربها السيدة فى وطنها التى لايجار عليها ولا يستباح حماها ، وقد كره الإسلام الاستضعاف ، وعزم على المؤمن أن يكون حمى الأنف عزيز الجانب!

فإن ضاقت به أرض فليرحل إلى غيرها ، وليبق كما كتب الله له قويا أبيا ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ... ﴾[1] .

(١) الزمر : ١٠ .

على أن الرحيل لايسوغ أن يكون فرارا من مقاومة ممكنة ، جاء فى خطبة لأبى بكر الصديق « . . إنا سمعنا رسول الله يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب»**. أو أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»** .

والواقع أن الظَّلمة من أجبن الناس ، ويوم يحس أحدهم أنه إذا لطم أحدًا ارتدت اللطمة إلى خده ، فكر ألف مرة قبل أن يعتدى . إنهم لا يزأرون إلا فى الخلاء ، ولا يمتدون إلا فى الفراغ والويل للشعوب الجبانة!!

للإنسان حقوق سياسية تجعله ينقد أى خطأ من السلطات كلها علياها ودنياها دون أن يلحقه أى ضرر ، وله أن يتولى أى منصب تؤهله له كفايته دون أن يقفه عائق ما . وأساس ذلك أنه ليس لأحد بعد رسول الله عصمة تعلو به على النقد ، وأن المناصب أمانات ينالها الجدير بها ، ويبعد عنها من لايستحقها .

وللإنسان حقوق مالية تفرضها له الإخوة العامة بين المسلمين ، وقد أشرنا من قبل إلى أن المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه . قال ابن حزم : ومن ترك أخاه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه! وذكر ابن الجوزى فى سيرة عمر بن الخطاب وقد أصابت الناس أزمة أن عمر قال : «لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عددهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالمطر فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم» .

وللناس حقوق ثقافية تجعل العلم بينهم مشاعا ، ميسور الأخذ ، يستنير به الذكر والأنثى ، والغنى والفقير ، فطلب العلم فريضة كما جاء فى السنة الشريفة ، وما تنضج ملكات الإنسان ، ويخصب تفكيره وشعوره ، إلا بأمداد لا تنتهى من المعرفة . .!

والمستغرب أن الإنسان المسلم من بضعة قرون يحيا بعيدًا عن دينه وينبت فى غير مغارسه ويحكم بغير شرائعه .

الشعوب هنا تختار حكامهم وتبعدهم إن سئمتهم! أما عندنا فالشعوب تفاجأ بحاكميها كما يفاجأ المريض بعلة لا يعرف كيف الخلاص منها!

وعندما وقعت مذابح لبنان تظاهرت الألوف غضبا فى كل عاصمة إلا فى العواصم الإسلامية ، لأن التظاهرات ممنوعة! من يدرى؟ إن الشجا يبعث الشجا ، فقد تتحول هذه التظاهرات ضد الحكام بفعل فاعل!! فالأفضل أن تمنع ، والرؤساء المحبوبون سيؤدون الواجب!

٣١. هل مسئولية المسلم تجاه المجتمع الإسلامى وحده أم تجاه المجتمع البشرى كله.. كيف؟

معرفتى بالإسلام تجعل ولائى للناس كلهم جزءاً من ولائى للدين الذى أحببته! فأنا لا أشعر بانشطار فى هذا الولاء الواحد .

وقد سمعت أحد الشيوخ فى أثناء الدروس يقول : نحن المسلمين أمة الإجابة ، وغيرنا من أهل الأرض أمة الدعوة! قلت : ما معنى هذا؟ قال : إنَّ محمدا ﷺ دعا العالمين إلى الله ، فنحن استمعنا إلى النداء وأسلمنا وجوهنا لله ، وحق فينا قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾(١) فنحن أمة الإجابة!!

أما غيرنا مدعو مثلنا ، ولما يجب بعد! لعل النداء لم يصل إليه ، أو لعله وصل إليه مشوها لا يحرك دواعى القبول ، وأيا ما كان الأمر فهو مدعو!

وعلى أن أبلغه ما يجهل ، وأن أثير فيه دواعى التصديق ، لقد عرفت الحق قبله ، فآمنت ، ولست أولى منه بذلك الخير ، وقد يكون خيراً منى لو عرف ما أعرف ، والواجب يفرض على أن أكون صورة مرغبة لا صورة منفرة ، وإلا كنت مسئولا عن إضلاله ، أو حاملا أوزاره؟!

ومن الحزن أن عدداً من علماء المسلمين شغله الترف العقلى فخان أمانة الدعوة والبلاغ ، وأن عدداً من حكام المسلمين شغله المجد السياسى ، فما أحسن خدمة الحق ولا جذب الانتباه إليه! ونشأ عن ذلك أن العلاقة بين أمة الإجابة وأمة الدعوة كانت مليئة بالخصام ، بل كانت مخضبة بالدم!

قد تقول : أهذا كل ولائك للإنسانية؟ وأجيب للفور : لا . . لا تنس أنى حسن الظن بالفطرة الإنسانية نفسها ، لأنى مسلم أعلم أن الصفة الأولى لدينى أنه دين

(١) آل عمران : ١٩٣ .

الفطرة! إن الناس يولدون عليه ويتجاوبون مع تعاليمه إذا أدركوها . . ويوم تخف قبضة الموروثات الرديئة فإن الجماهير ستكون قريبة منى أو أكون أنا قريبًا منها .

ولو خلى المرء وفكره لاتجه إلى إله واحد ، ولشعر بدوافع ذاتية إلى هذا الرب الوحيد ، ولو خلى المرء وفكره لآثر الزواج على العهر ، والصحو على السكر ، والإخاء على الأثرة ، والنصيحة على الغش!

إننى حسن الظن بالفطرة البشرية ، واعتقادى أنها كالثمر الذى ينبت جميل الرواء شهى الطعم ، بيد أن النبات قد تعدو عليه أمراض تشوه لونه ومذاقه ، إن هذه الأمراض علل طارئة ، وقد تعارف الزراع على مقاومتها كى يحموا محاصيلهم ، لكن الأجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية ، ومن ثم قد تلتهمها الأوبئة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، فيشب الصغار مائلين زائغين!

وماذا يفعل أولئك الصغار إذا سمعوا منذ نعومة أظفارهم أنه لا إله ، والحياة مادة؟ أو سمعوا أن الآلهة شركة مقرها جبل أولمب أو صحراء الجزيرة أو فوق السحاب؟ إنهم يكبرون زائغين .

أترانى أدافع عن ذلك الانحراف؟ كلا ، وإنما أذكر الواقع المجرد ! والذى أعلمه أن الله زود الفطرة بخصائص تملك بها حق الاعتراض على الباطل الذى يعرض أو يفرض عليها ، وأن هذه الخصائص من القوة حيث يعد إهمالها تقصيراً سيئا وأساسا لمساءلة عادلة يوم الحساب ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١) .

هذا الحوار ناضح بأن الخصائص الذاتية للفطرة الإنسانية قادرة على المقاومة والرفض ، يجب أن يرفض العقل الخرافة ، ويتشبث بالحقيقة ، يجب أن يرفض الضمير البشرى الإثم ويتشبث بالبر والطيبة .

(١) الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٤ .

وإذا حدث أن خفت صوت الفطرة ، جاءت نجدات من الخارج لمعاونته كى يؤدى وظيفته ، ويبقى الإنسان إنسانا ، يعرف ربه ويؤثر دربه!!

وإذا كان الوحى الإلهى غير كاف فى إيقاظ الفطرة وإعادة التائه إلى رشده ، أحاطت بالأفراد والجماعات آلام تكسر الغرور وترقق الحجب وتحمل البشرية على الخضوع لمولاها ومناشدته الرحمة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾(١) .

ومع ذلك فالفطرة وحدها لاتخطئ فى كل شىء! إنها تخطئ وتصيب ، وتجور وتستقيم! ودورنا نحن المسلمين أن ندعم الصواب ، وأن نوهن الخطأ ، وأن نذكر بما تنوسى من حق .

وفى ظلمات الجاهلية الأولى شعر نفر من ذوى القلوب النبيلة أن المستضعفين يجار عليهم فى الحرم ، وتغصب حقوقهم ، فتجمعوا وقرروا أن يغيثوا الملهوف ، ويبقوا إلى جانبه حتى يرضى ، ذلك هو حلف الفضول الذى تم فى دار عبدالله بن جدعان .

وبعد ظهور الإسلام ونزول الوحى ، ذكر النبى ﷺ هذا الحلف بإعزاز وولاء وقال : لو دعيت به فى الإسلام لأجبت! نعم إن الإسلام الذى جاء به هو الإنسانية فى صورتها الوسيمة ، ونحن - انبعاثا من هذا المعنى - نرى لزامًا علينا فى الميدان الدولى أن نحارب التفرقة العنصرية ، وأن نخاصم الاستكبار بالقوة ، وأن نقر عيننا بانتصار العدالة ، وأن نفرح بشيوع الرخاء بين عباد الله .

إننى أغبط الرجال الذين يعملون باسم «لجنة العفو الدولية» على اليقظة الخلقية والغيرة الإنسانية التى تجعلهم يرقبون الأحداث فى العالم ، فإذا وجدوا ظلما شهروا به ، ومزقوا الأستار عنه ، وألبوا الدنيا عليه .

أشعر كأن هؤلاء الناس ينفذون التعاليم التى تلقيتها من رسولى المنصف الرحيم القائل : **«إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»!!**

---

(١) الأعراف : ٩٤ .

إن الدين تحسين للحسن وتقبيح للقبيح حيث كان ، ومن أى الناس كان . وأذكر أننى لم أعلم بمصارع العلماء الصوماليين العشرة الذين رفضوا قوانين الأسرة الجديدة فى الصومال ، إلا من استنكار لجنة العفو الدولية لما وقع . . إن أغلب الإذاعات الإسلامية والعربية آثرت الصمت . . !!

قلت : هؤلاء الساكتون أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، أما الأجانب الغاضبون للظلم فهم أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر! إن هلاك الأجيال على ظهر الأرض يجىء من شيوع الخبث وسكات العارفين ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾(١) .

والانتماءات المزورة لا تخدع ذا لب ، كم من منتمين إلى الإسلام لو تفرست فى أعمالهم ما وجدت أثرًا لفطرة سليمة ، أو تقوى حقيقية ، وكم تجد مسالك هى الإسلام بعينه ولكن العنوان مفقود . . !

أعجبتنى نظم الشورى فى الغرب ، ورأيتها تطويرًا جيدًا لما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قديما . . فإذا أذناب لولاة الجور الذين أهانوا الإسلام وأمته يقولون فى صفاقة نادرة : هذا اقتباس أجنبى ، والشورى عندنا لاتقيد حاكما . . . !!

وتأملت فى أحوال القائلين فرأيت ناسا يخزى بهم الحق ، وتستخفى المروءة ، يسترون عوراتهم العقلية بركعات ميتة ، وتدين شائه ، فقلت فى نفسى : الأوربيون فى نظم الشورى قلدوا النبوة والخلافة الراشدة ، وهؤلاء العرب قلدوا الحجاج والمعتصم وبقية السلاطين . . !

ما أكثر ما ظلمت أمتنا بالمتقولين الجهلة . .

على أن الإنسانية فى غيبة الوحى تشعبت بها الطرق وتفرقت مذاهب شتى كما زاحمت الفطرة غرائز وأهواء جامحة ، والحضارة التى تسود العالم اليوم تشوبها

---

(١) هود : ١١٦ ، ١١٧ .

نقائص ونقائص كثيرة . . وربما اختلف الناس فى مفهوم العدل ، بل فى مفهوم الفضيلة والرذيلة ، وبين الجبهتين اللتين تحكمان العالم تفاوت واسع فى وجهات النظر .

وذلك كله يؤكد ضرورة الرجوع إلى وحى الله والاستهداء به فى متاهات الظنون ، ومتشعبات الهوى ، إنه لابد من دين لدنيا الناس .

ونحن المسلمين نملك الوحى الخاتم ، ومن حقنا وحدنا أن نتكلم باسم موسى وعيسى ومحمد جميعا ، فإن كتابنا جمع لباب الدين ، وتضمن جملة الحقائق التى يفتقر إليها البشر ، ليوفوا بحق الله أولا ، ثم ليتعايشوا متعاونين متراحمين فى هذه الحياة .

بيد أن الناس لن يسمعوا حرفا منا ما بقينا على تخلفنا الشائن ، وما بقينا جهلة بقيمة التراث الذى لدينا ، وما بقينا - على غنانا - نتسول من الشرق أو الغرب برامج إصلاح وضرورات حياة .

فلنستعد ثقتنا بأنفسنا ولنوثق إيماننا ، ولنتمسك بالخصائص التى زكت وارتقت بها أمتنا ، وهى ما قررته الآية الكريمة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1] .

إننا لسنا جبهة ثالثة فى العالم ، إننا الجبهة الأولى فيه ، فلمّا أزرينا بأنفسنا أزرى بنا الآخرون ، وطريق العودة ممهد لا مسدود!

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

٣٢. ما تأثير القرآن فى الفكر الإنسانى..؟

يحسب كثيرون أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل ، أو أنه بحسب الإنسان أن يكون صافى الروح نبيل الخلق صادق المشاعر ليتم دينه ويكتمل يقينه ، مهما كان عقله بعد ذلك . .

وذلك خطأ! فإن الإسلام يريد أولا عقلاً سليمًا وفكرًا مستقيمًا ، فما قيمة امرئ مشوش الذهن سقيم التفكير؟

إن صحة النظر إلى الأمور ودقة الحكم على الأشياء تجىء أولاً ، ثم تجىء الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك . .

وعندما بدأت الدعوة إلى الإسلام أهاب القرآن بالناس أن ينفضوا عنهم ما ورثوا من خرافة ، وأن يعيدوا اليقظة إلى عقولهم المغيبة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1] .

كان المتعصبون للتقاليد القائمة يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[2] وكان النبى المكافح لإزالة هذه الغيبوبة العقلية يرفض هذا التقليد الأعمى ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ . . ﴾[3] .

لابد من موازنة عادلة ، ونتيجة صحيحة تحترمونها وتصيرون إليها! والحق أنى لم أقرأ كتابا منسوبا إلى السماء احتفى بالنظر العقلى وخط على ضوئه معالم الإيمان مثلما فعل القرآن الكريم . .

إنه يخاطب الإنسان هكذا ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ

---

(١) سبأ : ٤٦ . (٢) الزخرف : ٢٢ .
(٣) الزخرف : ٢٤ .

الأَرْضُ مُخْضَرَّةً . . . ﴾(1)؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾(2)؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً . . . ﴾(3) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ . . ﴾(4) .

لعمرى ما وجد العقل من بدء الخلق إلى يوم الناس هذا كتابا يعترف به ويجلو بريقه ويمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل! كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال وأحلام الوجدان وهيام الشعر وتهاويل الفن حتى جاء القرآن الكريم ، فإذا الدين علم يعتمد على الحقيقة ، وقضايا تعتمد على البرهان ، سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة ، أو كما يعبرون فى عصرنا بالمادة وما وراء المادة . . .

وانضم العلماء بالدين إلى الملائكة المقربين فى الشهادة بوحدانية الله وعدالته كما جاء فى الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(5) .

وبديه أن العلم هنا ليس العلم النظرى الجاف ، لا ، إنه علم صادق ، مطابق للواقع ، يمهد لما نسميه العاطفة العاقلة ! ثم نتشبث به ونتعصب له ، فلا نرخص قيمته ولا نتنازل عنه ، إنها خيانة أن نتخفف من الحق عند ثقل الأعباء ، أو نستدبر له إذا أرهقنا الأعداء . . !

وفى القرآن الكريم نماذج كثيرة للتعريف بالحق ولفت البصائر إليه ، ولنختر هذا النموذج!

يقول الله سبحانه وتعالى معرفا نفسه لعباده : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(6) ؟!

(1) الحج : 63 . (2) الحج : 65 . (3) الفرقان : 45 .
(4) النور : 43 . (5) آل عمران : 18 . (6) المؤمنون : 78 - 80 .

على سواء ، والغريب ، وتلك أسانيدها العقلية ، تتابعت فى سياق صريح قاطع يثبت . . . كل نقص ، ويسند إليه المدائح التى تنبغى له ، وتليق بمجده!!

(1) المؤمنون : 90 - 92 .

. . . الأمر عند هذا التقرير المدعوم ببراهينه؟ لا لقد جاء بعده تيار . . . ءة من كل شرك وجهل ، ويخوف من عواقب هذا الانحدار ، . . . رة استعاذة من صاحب الرسالة أن يلحقه رشاش من الغضب . . . الشاردين المعاندين ، وغضب الجبار محذور ، ومن شمائل . . . نأى عن أسبابه ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلا . . . ينَ (94) وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾(2) .

. . . تمزيق الحجب دون الحقيقة وبعد مواجهة البشر بما يحملهم . . . لنبيه ﷺ : تمهل ، وتذرع بالحلم ، وقابل بإحسان من يسف . . . ﴿ . . . السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ . . .

. . . رات تنبنى عليها السور فى القرآن النازل بمكة والنازل بالمدينة . . . أن النموذج هنا من سورة مكية ، والمستشرقون يرون أن القرآن

(2) المؤمنون : 93 - 95 . (3) المؤمنون : 96 ، 97 .

هذه إنارة للعقل لا . . . الله جدير بالاحترام كل . . . أتظن الشمس عقدت . . . حددت المدار الذى يخ . . . فى الفضاء لا تعقل ش . . . وبعد استعراض للك . . . بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . . . إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْ . . . وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُ . . .

هذه عقيدة التوحيد . . . لله كل كمال وينزهه عن . . . حسنا ، فهل وقف . . . عاطفى يدفع إلى البرا . . . جاء هذا التيار فى صو . . . الماحق الذى سينزل ب . . . العبودية أن نتوقى ، و . . . تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِ . . . والغريب أنه بعد . . . عليها حملاً ، يقول الـ . . . ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْ . . . هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ . . .

. . . يجوز أن يضل بعدها الطريق ، ومنهج القرآن فى الحديث عن . . . ، إنه يضع أصابع الإنسان على ما حوله ثم يقول له : فكر! . . . تفاقا مع الأرض لتعاقب الليل والنهار؟ أتظن كلتيهما . . . ها ، ووضعت عقوبة لمن يتجاوزه؟ إن هذه الأجرام السابحة . . . ، وإنما تديرها حكمة . . (أفلا تعقلون)؟

. . . ن تناول عرشه وفرشه جاء هذا التقرير الحاكم ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم . . . (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ . . . ضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ . . . يُشْرِكُونَ ﴾(1) .

المكي يعتمد على العاطفة أكثر مما يعتمد على الفكر . . فهل لديهم ما يوصف بأنه فكر أو عاطفة؟ إن ما لديهم فراغ!!

ولا يوجد كتاب بنى الإيمان على البرهان ، إلا هذا القرآن ، إن التفكير فريضة إسلامية كما يقول الأستاذ العقاد!

ومجال التفكير هو فى العالم المادى ، هنا يستطيع الإنسان أن يلاحظ ويستنتج ويتابع التجارب ويكرر الفروض ويصل آخر الأمر إلى ما يفيده فى دينه ودنياه ، وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم عندما قال : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1] .

أولو الألباب هنا يتفكرون فى خلق العالم! ويستنتجون من قوانينه المطردة ، ونظامه المتناسق أنه مخلوق لرب حكيم ، فلا عبث ولا فوضى . .

وفى أول السورة نفسها ورد ذكر أولى الألباب على نحو آخر ، إنهم لا يحاولون اكتناه الذات العليا ، ولا يخوضون فيما يصعب دركه من شئونها ، إننى شخصيا «أشعر» بأن الله ملك مستو على عرشه ، لا يَندُّ شيء عن سلطانه ، ولا يبعد أمر عن حكمه! لكن كيف ذلك؟ لا أدرى!

أنا لا أدرى علاقة روحى بجسدى ، فكيف أدرى استواء الله على عرشه!! الأفضل أن أتجاوز ذلك إلى غيره على نحو ما قيل :

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع!!

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[2] على أن هذا التسليم ليس جواز مرور للخرافة أو قبولا للمتناقضات! وكما قيل : ما يعز على العقل فهمه شيء وما يحكم العقل باستحالته شيء آخر . .!

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) آل عمران : ٧ .

وقد حارب القرآن الأوهام ، وكم يعيش الناس صرعى أوهام! وحارب الظنون ، وكم من ظنون توارثها البشر ، وجعلوا منها عقائد مقدسة ، وما كانت يوم وجدت إلا شعائعات لا أساس لها . . . ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1] .

ومن هنا نهى الله سبحانه وتعالى أن نتبع ما لا نعلم وأن نتأثر بما لا أصل له ، لقد وهب لنا الفكر والحواس لنستخدمها فى تبين الحق ، وسوف يسألنا عن طريقة استخدامنا لتلك المواهب ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[2] ومن معالم الجماعة المسلمة أنها تحترم المنطق ، وتسلم باليقينيات وتخضع لسطوة العلم! وقد مضى هذا المنهج إلى غايته وهو يحارب الشرك ويؤسس التوحيد ، فترى الحملة على المشركين معللة بأنهم يتبعون ما لا دليل عليه! قال تعالى : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[3] بل إن ذلك يراعى عند قصص الأولين ، وذكر أسباب الخروج على الضالين المستبدين ، فقد جاء على ألسنة الفتية أهل الكهف ﴿هَٰؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ . . .﴾[4] أى بدليل واضح مقبول!

الحق أن أثر القرآن الكريم فى الفكر الإنسانى عميق ، إنه هو الذى أقام الإيمان على المنطق ورفع راية العقل!



(١) يونس : ٣٦ .
(٢) الإسراء : ٣٦ .
(٣) المؤمنون : ١١٧ .
(٤) الكهف : ١٥ .